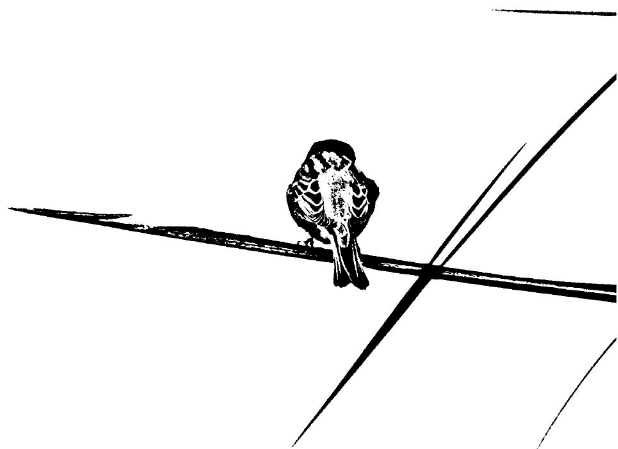


بينما أهوي

حسين المحروس

سماهوي



حسين المحروس

سيماهوي

رواية





2017

HUSSAIN AL MAHROOS

SEMAHOOY

سِماهوي: رواية

حسين المحروس

Semahooy

Hussain Al Mahroos

الطبعة الأولى - 2017

ISBN 978-1-988483-00-9



مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com



ص.ب: 81811 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: alenwan10@gmail.com

هاتف: +971-55-653-1511

صورة الغلاف: للمؤلف

خطوط الغلافين: عباس يوسف

إلى نَرجس بنت حسن المحروس،

هَاجرَ بها أبوها طفلةً إلى البصرة،

خائفاً يتلفّت...

إلى أماسيل الديري أيضاً.



أسماءُ الحوريات

في الجانب الشمالي الشرقي من ساحل قرية سِمَاهوي، قريباً جداً من الشريط المائي الضَحل في رأس القرية، غرباً إلى قصّار، صخرة نصفها في الماء، مخضرة بطحالب البحر،

هنا بالتحديد كلّما غاص بحّار قال:

رأيتُ ما يُشبه قريتنا، خضراء، رأيتُ كثيراً من كِسَر الفخار، أخاديد في الصخور كأنّها من صنع بشر لا بحر، مخابئ عميقة تأخذ لغرف مظلمة يمرّ فيها آدميّ، محميات للأسماك.

ويقول بحار:

رأيتُ أساسات بناء واسطوانات لم يبقَ منها إلّا مسافة ذراع، عليها ما يُشبه السقف وأعمدة وقواعد بيوت وجِرار فخارية صحيحة ممتلئة بالتراب ولُحوف السمك، حواف الصخور لا تشبه حواف صخور

قيعان البحار، فِشُوت كأنّها سلالم.

ويقول بحار:

وجدتُ قلادةً من الذهب لا تشبه قلائد نسائنا، مرَّرتُها على بيوت القرية أبحث عن أصحابها فلم تقرّ امرأة بذلك.

قِيل إنّها بلدة مأهولة بأهلها الطيبين: بحارين وملاحين وفلاحين، هاجر رجالها كلّهم قسراً بعدما وقع عليهم من الظلم الكثير فلم يبقَ فيها إلا النساء والأطفال.

كانت الهجرةُ والنفي محصورين في الرجال. المرأة لا تهاجر، المرأة لا تُنفى.

قِيل إنّ «چواچب» الماء الحلو الثلاثة التي تنبع حول القصّار في أعماق البحر وتفور بعد الجزر هي عيون ماء تلك البلدة، فلمّا ترادفت عليها هجرات الرجال، وماتت بطون النساء، وحاصرها رجال خِفاف غرباء، هبطت البلدة فجأة كلّها تحت الماء.

هبطت..

هبطت فصعدت فقاعات الأنفاس لؤلؤاً يتدحرج إلى الأعلى، تنتهي كلّ فقاعة عند حدّ سطح البحر،

اختلطت بشفافية قناديل البحر، ارتفعت الأعشاب وغطّت الموقع، فلم يصل إلى الشاطئ من تلك الأعشاب أكثر ممّا وصل يوم هبوطها.

توقفت أعمار النساء والأطفال فلا أحد يكبر ولا يشيخ، ولا أحد يمرض.

النساء لا يضعن أيديهن على خاصرتهن من التعب، ولا يعرفن شيئاً اسمه: الموت.

صارت النساءُ اللواتي لم ينزعن عنهن لباسهن حوريات لهن أسماء لا تتكرر ولا ينساها أحد، وصارت البلدة مأهولة بالماء وأسماء الحوريات.

نساء قرية سِماهوي يُوصين بناتهن صغيرات وراشدات ألّا يغسلن ثيابهن ولا حوائج بيوتهن في تلك العيون، فماؤها الثائر يتدفق بغزارة ويسمع صوته البعيد، يخلخل حليَّ النساء، يجعلها قلقة، سرعان ما تتحرر من معاصمهن وأصابعهن ويأخذها التيار المندفع إلى البلدة تحت الماء.

الأمهات في سِماهوي يمنعن أطفالهن –لخفّة أجسادهم– من النزول فيه خشية أن يقلبهم تيار الماء إلى عمقه فيختفون.

قِيل إنّ كِسَر الفخار التي يحملها الموج إلى الساحل علاماتُ حنين الأرض للأرض، الفخار المحروق يبقى، لا يندثر، لكن لا يستطيع أحدٌ تحديد زمانه.

وقيل إنّ هذه البلدة سوف تصعد بأهلها وبساتينها وعيون الماء، وقصص الهجرة ووهج اللهفة، ووجع الانتظار، وطيور البلدة وحمامها لا تحني رؤوسها ولا تأكل ممّا فضل عن الناس.

تصعد البلدة، تلتحمُ بقرية سِماهوي وتعود إلى موضعها، تهدأ، لا تنتظر فيها النساءُ الرجالَ، لا شيءَ فيها ينتظر شيئا. الغواصون لا يشْكون من ألم في عيونهم، والفلاحون لا يتحدثون عن وجع ظهورهم وركبهم، الآباء والأمهات يُصبحون شباباً مثل أولادهم، يطّلعون على خواطرهم، فيتقلّبون بين الحكمة والهمّة، لكنّ ذلك لن يحدث حتى يعودَ جميع المهاجرين سالمين.

الطَير الخفيف

قرية سِماهوي كلّها نخيل.

البساتين تمورُ أقراطٍ داكنة، التينُ الأصفر على حواف مجاري وجداول الماء، زهرة الرمان براكين صغيرة بهجةً لقلائد الفتيات الصغار، الرمان الثقيل، الخوخ والعناقيد المثقلة بباكورة العنب الأخضر المصفرّ، ثمر البابايا الأصفر أثداء نساء لا ينقص حليبهن كثرةُ الإرضاع، الليمون دموع الأترج، الشمندر دم الأرض السكّري، مَنْ يدخل في بساتين القرية يلتقي بمشيجه الذي خُلق منه.

بيوتُ القرية المتراصّة أكثرها من سعف النخيل، يسند بعضها بعضاً، يمشي على سقوفها التَيس من الزمّة شرقاً إلى عيون ماء ريّة غرباً، صيفها رطب وعيون ماء بارد، وشتاؤها تمر وقهوة وأهلها طيبون، لا موضع فيها يخلو من نخلة أو فسيل، للنخيل أسماء

الذين هاجروا قسراً منها، وأسماء الفسيل مؤقتة لنية مهاجر، الطرق والممرات ممهورة بظلال النخيل، يسلّم الظلُّ الشخص إلى الظلِّ فلا يشعر في مشيه بالتعب، ولا يدخله سأمٌ كمَنْ يخرج من ظلّ ويدخل في ظلّ، والوقت فيها من شمس وظلّ.

الجزيرة كلّها قرية.

سياج البساتين والدواليب تبدأ عند الحدّ الذي يبلغه زبد الأمواج، وظلال النخيل تتموّج على ماء البحر. وكان الفلاح والبحار علي بن غانم وأولاده الثلاثة: عيسى ومحمد وعبدالله يرون البحر من فوق رؤوس نخيل البساتين كلّما صعدوا عليها، وترى ابنته الوحيدة خزنة البحر في عيون إخوتها، وعيون نسوة هاجر رجالهن وأولادهن فرادى عبر البحر، تحفظ خزنة أسماء النخيل، وأسماء البساتين وأسماء حظور الصيد، وتحفظ أسماء النساء الصغيرات اللواتي هاجرن في الضباب. يخلق اللهّ النساء في هذه القرية من الخاصرة؛ لذا كلّ شيء يبدأ فيهن من الخاصرة: الحبّ، الحياة، الصبر، التعب، الولادة، وألم الهجرة.

في سِماهوي حزن النساء كنزٌ في الخاصرة...

في سِماهوي فرح النساء ومضةٌ في العينين...

أولاد علي بن غانم الأربعة بين البحر والبستان، لا يعرفون شيئاً اسمه الفراغ، فلا الأرض تسكتُ ولا البحر يغور، ما ينجزه الذكور الثلاثة تنجزه أختهم خزنة، ولا يستثنى من ذلك إلاّ مهنة الغوص على اللؤلؤ، ففي هذه المهنة قسوة قلب لا تناسب النساء: الغياب.

أخذ علي بن غانم الفلاحة والملاحة والغوص على اللؤلؤ من أبيه غانم، ومعها ورث البستان الكبير المسَعّد، يعينه عليه فلاحون وفلاحات وأطفالهم. عوائل تسكن في عِشش من سعف النخيل في الزاوية القريبة من عين ماء البستان تسترها النخيل وتظللها أشجار اللوز[1] العالية المائلة، أمّا حظور ومساكر صيد الأسماك فلا يدخلها ولا يباريها غيره، وكان المسعّد أهم مساكر صيد الأسماك في سِماهوي، بناه علي بن غانم وحده في المياه الضحلة أمام البستان؛ لذا سماه باسم البستان. وكان إذا صعد على أقصر نخلة رآه، حاجزاً من حجارة جيرية جمعها حجراً حجراً في عربة يجرها حمار، ثمّ ركنها عند سياج بستان المسعّد بجوار

1- شجرة موسميّة الثمر، أوراقها عريضة، وثمارها يؤكل أحمر أو أصفر، تُزرع في البحرين بكثرة في البساتين والبيوت.

البحر، وفي صباح يوم واحد فقط شيّد المسكر في موضع قريب من الشاطئ بين حدّي المد والجزر على شكل نصف دائرة، وبارتفاع ذراع. تسبح الأسماك ساعة المدّ داخل المسكر، فإذا حان الجزر وانحسر الماء من بين الحجارة انحصرت الأسماك فيه، فيصيد بعضها بشباكه، والأخرى بحرابه، وما يلوذ منها بالفراغات بين الحجارة يعتني بسحبها واحدة واحدة، ويجمعها كلّها في جراب. فإذا تعب جلس ليرتاح على إحدى صخرتين وضعهما في فناء المسكر.

العمل في البستان والبحر لا يُتعب علي بن غانم ولا يقلل من حيويته، لكن الذي يتعبه الضرائب التي يفرضها فداوية[1] الشيخ على الأنفس والنخيل وماء الري في البستان وحظور السمك وعلى رؤوس البقر والغنم والدجاج والحليب والبيض، لا وقت لجمعها ولا نظام ولا قانون غير مزاج الكيخدا، جباة الضرائب.

بعد رحيل والده، ثَقُل على علي بن غانم دفع الضرائب، وكثر اعتراضه ومناقشته للكيخدا، أخبره

1- اسم أطلق على حرس الحاكم الخاص، الذين يفدونه بأنفسهم، وهم أداة القسر التي يستعملها لتنفيذ إرادته أو إرادة من ينوب عنه. مفردها فداوي.

بأنّه دفع ضريبة الدَوْب على الري بالماء للنخيل قبل ثلاثة شهور فقط، فيرد عليه:

– الضريبة بحسب الإنتاج، ليس مسموحا لك مناقشة الأمر ولا الاعتراض... سمعت؟

– الماء من أرض الله.

– اسكت! اسكت... الماء من أرض الشيخ. سكتنا عنك وأنت تأوي فلاحاً تهرّب كثيراً من دفع الضرائب، صبرنا عليه وعليك.

– جاسم فلاح مسكين، تعب من دفع الضرائب وتاه في القرية ليس له مأوى ولا نصير!

– الآن لن نسكت عنك ولن نصبر عليه. البستان الذي تؤوي فيه المذنبين، وتتستر عليهم فيه لن يؤويك!

– هذا بستان والدي بصكّ الوثيقة!

– وبستان والدك في جزيرة الشيخ! وأنتم جميعكم هنا في هذه الجزيرة مُعْفَون من الخدمة في الجندية، تدفعون لأنّكم مُعْفَون... سمعت؟!

– ما دعانا أحد للخدمة في الجندية!

– انتهى... اسكت... تدفع نقداً أم عينا؟

قال الكيخدا ذلك في غضب شديد، ولم يبتعد حتى

دفع علي بن غانم ضريبة الدوب نقداً، ودفع شيئاً من ضرائب جاسم، سجّل ذلك في دفتره وكتب: علي بن غانم معارض لدفع الضرائب، ويؤوي فلاحاً مذنباً، هارباً من دفع الضرائب أيضاً!

بدا علي بن غانم مرتاحاً بعد ذلك اليوم، صرّح بما كان يدّخره في نفسه طويلا منذ وقائع الكيخدا مع أبيه، أخرج بعض ما في صدور أهل القرية، قال عنهم، فقالوا عليه كثيراً، ونسجوا حكايات وضع فيها كلّ واحد ما في خاطره على لسان علي بن غانم. وصل إليه بعضها وتمنى لو أنّ كلّ الذي فيها يحدث.

بدأت أولى المضايقات برؤية أحد رفقاء الشيخ، المختصين بالنظر في الأراضي والتربة وإنتاج التمور يحوم في القرية على حماره ويطيل النظر إلى نخيل بستان المسعّد، بعدها عاد الكيخدا وتوقف في وسط البستان مع الفداوية وطلب من علي بن غانم دفع ضرائب على الفلاحين العاملين لديه حسب مدخول كلّ واحد منهم:

- سددت ضريبة النفوس عني وعن الجميع. قال ابن غانم في ضيق شديد.

- تغيّر إنتاجهم في الشهرين الماضيين فتغيرت

الضريبة، ولديك فلاح هارب عليك ما تقدّم وما تأخّر من ضرائبه أيضاً. قال الكيخدا.

طلب ابن غانم دفعها عينا من الخضروات والماشية لكن الكيخدا رفض، فالضريبة الرقابية تدفع نقداً نصف روبية إلى روبية عن كل رقبة ونفس، ولم تتجاوز ذلك.

كان علي بن غانم يعرف جيداً أنّه إذا عجّل في دفع الضرائب ألفت النظر لما يدخره من مال، وأنّ الضرائب لن تنتهي؛ لذا كان عليه أن يفعل ما يفعله رجال القرية الذين يملكون بعض المال والنخيل وحظور السمك: التواضع في اللباس والمأكل وشكل البيت ونوع الأكل، وأن يزاول العمل مثل أي عامل في البساتين والبحر، وأن يكون دقيقا في ذلك حتى يظنّ نفسه أنّ حياته كذلك وينسى.

تراكمت عليه الضرائب والكيخدا يضاعفها بأنواعها كيف يشاء مزاجه، والفداوية تواقون للتسلط والأخذ.

بعد أيام وجد رجال من القرية الفلاح جاسم في إحدى خِيس النخيل، مقيّد اليدين من الخلف، معصوب العينين والدم ينزف منه. حملوه إلى مجلس

خزنة، قال: سمعتهم يقولون انتهينا من جاسموه وجاء دور بن غانم! لن يتركوك أبداً، هؤلاء لا ينسون! لا أريد العمل في البستان، تعبتُ وأتعبت.

صار كلّ شيء أمام علي بن غانم ضيقاً إلاّ البحر،

أن يطير بحوصلةٍ خالية،

أن يهاجر بلا شيء.

أوكل أمر العائلة وبستان المسعّد وحظور ومساكر الصيد وقضايا أخرى مالية في ذمته إلى ابنته خزنة، أوصاهم بأنفسهم وبالفلاح جاسم: لا تتركوه وحيداً، لا تتركوه لهم، لا تخذلوا جاسم فتخذلوني، أرض الله واسعة والظلم ليس في كلّ مكان.

هاجر بن غانم عند سْلوم الشمس في قارب صيد. هاجر سرّاً، لا أحد يعرف إلى أين. لكنّ بحارة قالوا إنّهم رأوه يصعد إلى سفينة كبيرة في عرض البحر متجهة نحو شمال شرق الخليج.

مرّ يومان على هجرة علي بن غانم صُودر بعدهما بستان المسعّد! أمر مستشار الشيخ الزراعي بتعديل نظام الريّ لصالح المسعّد في كلّ الأحوال والأوقات، فإذا ارتوت أرضه فتح الماء وأجراه للبساتين المجاورة

التي لا يعرف أصحابها موعداً واضحا ودقيقا له.

مرّ أكثر من خمسة شهور ولا أحد يعرف أين استقرّ علي بن غانم؟

ما أخباره؟

هل هو بخير؟

اختفى جاسم أيضاً، ولا أحدَ يعرفُ أين هو.

ظلّت خزنة تترقب الأنباء عنهما، توصي البحارة والفلاحين بالبحث عن جاسم وتقصّي أخباره، وتوصي التجار من القرية الذين يحملون البضائع عبر البحر إن التقى أحدهم بأبيها أن يحمل له سلام الأهل والأقرباء ولو من بعيد. بعد سبعة أشهر جاء رجل إلى القرية يُدعى الطير؛ لكثرة أسفاره وترحاله بعد أن فقد زوجته وولده، قال:

– إنّ علي بن غانم حيّ يرزق، وإنّه بخير، يعيش في البصرة.

أخذ ابن غانم الطير إلى حيث يسكن وتسامرا حول نار وشاي وأسماء الرجال وكلام كثير عن سِماهوي، وعن أيام قضياها في الغوص على اللؤلؤ. وفي اليوم الثاني طلب علي بن غانم من الطير أن يقضي له حاجة

إن كان في نيته المجيء إلى البصرة قريباً فوافق على الفور. قال ابن غانم:

مرْ على مسعّد وشب النار بمسچرها يا طير ألّم حالي

فهم الطير الطلب، قال:

– ابشر.

– وأن تسأل لي عن أحوال فلاح اسمعه جاسم بن أحمد. لا تنسى اسمه: جاسم بن أحمد، أسمر، خفيف، وكان لكثرة تشابك النخيل في البستان ينتقل من رأس نخلة إلى أخرى، ولا تمسّ رجلاه الأرض.

وصل الطيرُ إلى سِماهوي فجراً ومعه صديقان، توقفوا عند مسكر المسعّد وماء البحر جزر. وجد صخرتين في فناء المسكر، توقّف عند اليسرى منهما ثمّ انطلق منها في خطّ مستقيم إلى المدّ الصخري للمسكر، وصار يمشي بمحاذاته ويحسب تسعة أذرع، توقّف وطلب من الصديقين مساعدته في رفع حجارة جدار المدّ بهدوء حتى بانت صخرة سوداء، حفر بنفسه من حولها ثمّ رفعوها بمشقّة إلى عربة حمار. فلمّا حان سفره إلى البصرة، حملها وحمل معها صخرة أخرى؛ يضلل بها الناظرين. وعندما وصل

واستقرّ نظر ابن غانم إليها وابتسم:

- نعم هي!

أزال القشرة الأولى بسكين، ثمّ أزال التراب واهتمّ بتنظيف الموضع بالماء فخرج ما يشبه القفل، وضع فيه مفتاحا وأداره مرّات دون فائدة، قال:

- يا الطّير؟

- نعم...

- يا الطير؟

- نعم!!

- يا الطير؟

- نعم يا بن غانم!

- شانت النية يا الطير؟!

- لا... لكنّ المسافة طويلة ولا مؤنس لي في البحر، وكان لديّ مفلَقة محار فانشغلت بالصخرة.

- أفسدت القفل!!

- القفل؟!

انشغل علي بن غانم بفتح الصخرة وصار يعالج القفل ويدير مفتاحاً غريباً فيه حتى تمكّن منه. كانت

الصخرة منحوتة في الداخل وبها جرّة، محكمة الغلق بقماش وشمع غليظ، اندهش الطير وتراجع، هذا سرّ ابن غانم في البحر. فتح الجرّة وأخرج دنانير من ذهب أعطى الطير بعضها، وحمّله بعض الذهب أمانةً يضعه في يد ابنته خزنة، غادره الطير وانقطعت أخباره عن أولاده والقرية، قِيل إنّه تزوّج واستقرّ في البصرة، وقيل إنّه صار لا يطمئن له بال في بلد، أصابه شيء جعله لا يتوقّف عن الترحال من بلد إلى آخر مثل طير خفيف، وأنّه في كلّ مرّة يرحل عن بلد يصيبه ما أصابه في خروجه الأوّل من القرية: ألم بالغ في الكتفين، وانقطاع الأصوات عن أذنيه.

باب السرّ

النخيلُ الطوال جوار الشاطئ الشمالي الشرقي للقرية أبراج نظر وكشف.

كلّما صعدَ عيسى على نخلة يُروّس سَعفها، يُنَبّت طلعها أو يحدّر عذوقها، انكشف له الساحل كلّه. يعرف القوارب وأصحابها، وجهتها ومراسيها، والمواعيد غير المستقرّة لدخول حظور صيد السمك، الأشرعة الصغيرة البيضاء مثل زعانف سمكة قرش، مجرى قناة الباب العود بتعرجاته الذكية، الموضع الذي غاصت فيه البلدة المأهولة تحت الماء بأهلها وبيوتها.

يرى بَدروه، الفداوي المعروف بمزاجه في نهب سمك الصيادين، ينتظر على حمارته خروج أحد الصيادين من البحر، لن يقول كثيراً، ولن يتجاهله بحار، يشير إلى السمكات التي تعجبه، يأخذها ويغادر.

يرى حظور صيد السمك مثل قلائد تنتهي بفصّ فيروز دائري أزرق فيه سرّ الخير وقوة البصر.

مَنْ يَمشِ على خُطى سياج الحظرة ينتهِ به إلى أجمل مافيها: السرّ. كمَنْ يتتبع سلسلة قلادة تأخذه إلى سرّ بين نهدين: قلب من ذهب، وسرّ الحظرة قلبها.

وكان عيسى وأخواه محمد وعبدالله وثلّة من رجال القرية وشبابها قد أعادوا بناء حظرة الصيد الچوچبية في الخريف الماضي، فنهض رجال القرية، وفزعوا للمساهمة في تجديدها.

اتخذ عيسى قرار تجديد الحظرة بعد أن بنت القشريات والتصقت بسياجات الحظرة أسفل الماء. فتوحش السمك وقلّ اقترابه منها، وثقل سياجها ومال، وصارت صيانتها غير مجدية. قال عيسى:

- هذه الحظرة تعبت.

بدأ الأخوة الثلاثة برزم جريد النخيل الذي اختير وجفف بعناية، وقصب البامبو السميك، وحبال من ليف جوز الهند وليف النخيل إلى الساحل المقابل لموقع الحظرة، وضعوا الجريد بتوازٍ في شكل سماط طويل على رمل الشاطئ بعد لفّه بليف النخيل لتقويته وحمايته من

البحر المالح والقشريات، وتقوية السياج بالقصب القوي كلّ مسافة معروفة، وتثبيتها جميعها بحبال ليف جوز الهند المفتول جيداً، حتى أصبح السماط سياجاً قوياً متماسكاً. انتهوا من تجهيز سياجات ثلاثة متفاوتة في الطول، آخرها أهمّ ما في بناء الحظرة: السرّ.

طووا السيجات الثلاثة مثل سجادة، وحملوها إلى موقع الحظرة داخل البحر.

ثبّتوا سياجَ السرّ في شكل دائرى في موقع أعمق قليلاً من بقية المساحة التي سوف تُبنى عليها الحظرة. هنا سوف تتجمع الأسماك التي تدخل الحظرة. غرسوا الجريد والقصب في قاع البحر، ثبتوها أسفل الماء بالحصى ثمّ شدّوا السياج من أعلى بالحبال إلى أوتاد من الحديد مغروزة في القاع حول دائرة السرّ.

سوف يكون باب السرّ جهة الشاطئ.

وهم يفعلون ذلك أخذوا في الحسبان تضاريس الموقع، واتجاه الريح، وأن تكون جهة الحظرة هي الشاطئ. يعرفون أمراً هاماً جداً: أن لا تقع الحظرة في سَطوة حظرة أخرى سابقة، تمنع السمك عنها، أو تؤثر في صيده أو في مقداره.

يعرف أهل القرية ذلك جيداً منذ أن وُجدوا فيها، وأنّ بحر القرية لأهل القرية، وأنّ البحر لا يملكه أحد، إلاّ الأرض التي تبنى عليها حظرة الصيد فهي ملك موثّق، يتصرف فيها مالكها تصرف أهل الأملاك في أملاكهم، وذوي الحقوق في حقوقهم.

ويعرفون أيضاً أنّ أهل القرية يبنون حظورهم في طين القرية، الأرض التي تتبع القرية داخل البحر.

فلمّا فرغوا من تجديد الچوچبية وصار موعد الدخول الأوّل لجمع الأسماك منها، دعا عيسى الذين فزعوا لتناول وجبة المحمّر، الرز المُحلَّى بالسكّر المرشوش بالزيت الأخضر الخالدي دون إيدام.

يدخل عيسى وأخوه محمد إلى الحظرة للقيام بطقوس طعام الشِّرية، يحملان بعضا من المحمّر بالزيت، يرمون قليلاً منه جوار مدود الحظرة وفي فنائها، ويأكلان ما تبقّى.

بهذا ستكون الچوچبية حظرة صيد مباركة، لن تخذل مَنْ يدخلها.

يخرجان متفائلين بالسمك الوفير.

يأتمن عيسى أخاه محمداً على الچوچبية. سيكون

محمد هو بوّار هذه الحظرة.

يدخلها في الأوقات المناسبة من ساعات الجزر ليباريها ويتفقدها ويلاحظ سطوتها ويحدّث أخاه عيسى بأخبارها كلّ يوم.

وربّما دخلها مرتين في اليوم الواحد، يتّبع في ذلك حكم الماء، وطبيعة البحر، ووصيّة جده لأبيه:

«يا ولدي:

لا تبارِ الحظرة وأنت خائف؛ فلا تدخل سمكة سمينة في حظرة البحار الخائف.

يا ولدي:

السمكة السمينة تدخل في حظرة بحّار شجاع.

يا ولدي:

السمكة السمينة تحتاج إلى الأمان حتى في مَصيَدها».

تنتهي خزنة من إعداد القهوة والشاي قبل رفع أذان الفجر في المسجد بقليل، تضعهما على المجمرة، تقرّب جمرات صغيرات منهما وتمضي لشؤون البيت الكبير. رائحة القهوة تملأ المكان، والشاي متسكّر بأحلام البحارة والفلاحين، الهدوء في فجر القرية

يسمح بسماع تسبيحات قاصدي المسجد، همهماتهم، مشيهم، أحاديثهم لحظة مغادرة المسجد، تحياتهم.

لا أحد

ينفر من رائحة البحر والزفر في ثياب البحارة.

لا أحد

يستاء من رائحة الرطوبة القديمة في ثياب الفلاحين.

لا أحد

يغضب من جلد أياديهم الخشن حين يصافحهم.

تنتهي صلاة الجماعة؛ فيقصدون مجلس خزنة. هي تعرف منْ سيتأخر منهم أو يغيب لغرض، تعرف أسبابهم وانشغالاتهم، وتعرف أيضاً: ألّا فراغ في البستان، لا فراغ في البحر، ولا أحد في القرية يعيش خارجهما.

حدّثوها عمّا شاهدوه في المسجد، قال بحار بعد أن استأذن للكلام:

– قبل ثلاثة أيام رأينا عصفوراً بالغاً في روشنة المسجد، عصفوراً مكتملاً كبيراً تهبط عنده العصافير وتغرّه، تعجبنا من الأمر، ما رأينا مثل هذا قطّ. في اليوم الثاني رأينا العصفور في مكانه والعصافير تغرّه، فمدّ أطولنا يده نحوه فلم يتهيب، ولم يتوحش، ولم يخف،

وأنزله والعصافير تضجّ في زقزقتها وحركتها ترتفع وتهبط في المكان. عرفنا أن العصفور أعمى لأمر لا نعرفه وأن العصافير رقّت لحاله وصارت تطعمه كما تطعم فراخها.

– الله.. في العصافير درس للناس. قالت خزنة

– آه... ليتني العصفور. قال بحار شاب.

– هذا العصفور أعمى أما أنت ولله الحمد مبصر ولا تحتاج لَمَنّ يغرّك الطعام... اترك العصافير للعصافير واترك السمك للسمك، وإياك والتأخر عن طلب رزقك، وأن تنهض بعد الشمس، فالرزق في التبكير. ياالله قوم.. قووووم.. خذوه وياكم.

نهض بثقل نحو البحر، يتوسّط بحارين ينظر كلّ واحد منهما في الآخر، يخفيان ضحكة لا يسعها –إن انطلقت– إلا البحر.

أخوة ثلاثة يعملون في البحر والبستان: عيسى ومحمد وعبدالله، وربّما أنجزت أختهم خزنة أعمال البيت، واطمأنت على النساء والبيوت؛ قصدت البستان تسند إخوتها، تنجز ما يُسند إليها، وربّما جاءت ظهراً مع نسوة البيت وصبية فيهم إبراهيم بكر عيسى ووحيده، يحملن طعام الغداء على رؤوسهن لا ميل ولا

اضطراب، يضعن مواعين الغداء وأغطيته في العرش قرب بركة الماء الصغيرة، وينصرفن لبيوتهن، وربّما بقي إبراهيم حتى الغروب.

يتنادى الفلاحون في البستان أن صار موعد الغداء، تُمدّ الأرجل المتعبة المتشققة في العرش ويلقي الفلاحون المحاش على الأرض قبل جلوسهم، لا أحد منهم يعرف ما الغداء.

تهبط العصافير في الحقول حديثة الحرث تلتقط ديدانَ وَجدت نفسها فجأة فوق التراب لا تحته بلا حماية من مناقير عصافير جائعة، يتوسّد عيسى يده، ويغطّي عينيه بغترة كانت بيضاء، قيلولة يعيد فيها الطاقة لجسده.

لا فراغ في رائحة البستان، ففي الصباح الندي تعمّ رائحة الورد المحمدي وشجرة الحناء بأوراقها الصغيرة وزهراتها الصغيرات المتراصات.

في الظهيرة صمت الطيور وكسل الحيوانات، رائحة النخيل والرطب في موسمه، ورائحة التين صديق العصافير، رقيق على مناقيرها ولذيذ.

عند الغروب تفوح رائحة المشموم الذي يختبئ في شجيراته طائر هازجة البساتين الرشيق، ورائحة

الأرض المحروثة المسمّدة.

الليل لرائحة الرازقي وشجر اللوز المزروع عند حواف جداول الماء.

فإذا صار موعد دخول حظور صيد السمك ترك محمد ما تبقى من عمله لإخوته وحمل جرابا فيه سالية، مصيدة السمك، يدخل به إلى حظرة الچوچبية، يمشي بين ذراعيها مسرعاً في خطواته كعادة مَنْ لا فراغ لديه، كلّما رفع قدمه سال الماء المتبقي من الجزر من باطنها، يصدر عنهما صوت يشبه صوت إنسان يأكل، ويتمطّق في طعامه. إزاره مرفوع إلى ركبتيه ومعقود حول خاصرته، كلّما تقدّم في المشي هربت السرطانات الصغيرة في اتجاهات عشوائية، تسرع في مشيتها العسكرية وخفتها وتتوقف فجأة. ثمّة مجار يسيل فيها ما تأخّر من ماء الجزر نحو أعماق البحر في رحلة طويلة، تقطع فيها مسافة ميلين تقريباً، على هذا الماء تنعكس صورة أسوار الحظرة. قاع البحر أرض البحر، لونه أخضر يميل إلى الذهبي. قاع مليء بالقواقع الصغيرة بعضها تسيّره حلزونات شفافة، وبعضها ثابت في مكانه، وبين القاع الصلب وقدمي محمد طبقة من الطين الأبيض يخفف من قسوة القاع على قدميه،

لا يكترث كثيراً بذلك فقد مات الجلد في باطن قدميه.

يبدو محمد من الأمام رجلاً مكتملاً يتكئ برسغه على عصا تخرج من صدره. يبدو من الخلف إنساناً نصفه الأعلى جراب يخرج منه رأس.

يُمَيِّل العَصا من الأمام نحو الأسفل برسغه فيلتصق الجراب بظهره. لا يشعر بثقل الجراب حين دخول الحظرة ولا العصا تنال من كتفه. سوف يتغيّر ذلك إذا كان الصيد وفيراً، يمسك العصا بقبضته فينشدّ الجراب إلى الأرض تاركاً علامة في كتفه: الخير علامة.

يرى ولد ابليس على حمارته فلا يُلقي عليه التحية ولا يكترث لوجوده. هكذا يظنّ!

على رؤوس جريد وقصب سياج الحظرة ينتظره طائر البلشون الأبيض الناصع كملح البحر، شبعان، ووحيد كعادته، بطيء الحركة مثل شخص منشغل بهمّ ما. كأنّه مرسوم في لوحة مَنْ يشاهد ساقيه الطويليتن وهو يمشي في البحر يظنّه من بني آدم.

البلشون درس البحارة في البطء.

البستان والبحر وهبا أهل القرية فسحة في التأمل الطويل، قلّة الكلام، كثرة الإشارة، الابتسامة الصادقة السريعة، الانشغال، الكرم، قلّة التذمر، النهوض قبل

الشمس، والنوم بعد مغيبها، الصبر ولياقة الإنجاز وأنّ كلّ يوم له شأن.

يقترب محمد من سياج الچوچبية، يلتقط بعض الحشائش، يفرك بها جريد السياج كي لا تسمح بالتصاق القشريات التي تمنع اقتراب السمك، يفعل بسرعة مَنْ يغالب الوقت، له عمل في المسافات ولا مسافة بين إنجاز وآخر غير النية، فإذا انتهى رمى بها خارج السياج.

يرفع بصره نحو الشاطئ فيرى ولد ابليس لم يبرح مكانه، ماذا سيفعل إذا أوقفه ومدّ يده في جراب السمك؟

يذرع فناء الچوچبية، يمرّ بمساكن كثيرة وأمم تحت قدميه القويتين، ينتهي مشيه عند باب السرّ، قلب الحظرة وخزانة السمك ومفاجأة البحار وباب المزاج ومفتاح الحديث فيما سيأتي من بقية اليوم. يتوقف عند باب السرّ، يُعلّق الجراب على سياج الحظرة ويفكّ حبل رباط الباب من الأعلى بيده اليمين وهو يقرأ ما تيسّر من الدعاء.

يمسك قصبتي الباب بيده ويفتحه كمَنْ يفتح البحر، يضطرب السمك في ماء السرّ ويهيج ويعلو

الزبد وتصعب الرؤية. يلقي نظرة سريعة، يحمل الجراب ويدخل الرجل اليمنى بهدوء الحذر بعد أن يجسّ أوّل السرّ بحربة، يتأكد أن لا شيء طابن تحت تراب وطين السرّ، لا يغلق الباب؛ فقاع السرّ المنخفض عن مستوى أرض الحظرة كلّها لا يسمح للسمك بالخروج ولا يتركها تموت، تبقى حية، وهذا هو السرّ في السرّ! يعلّق الجراب في السياج المنخفض، يربط إحدى معلاقيه في السياج ويترك الآخر فيندلع الجراب، ويفتح فمه للسمك. يخرج المرقّد[1]، يضرب بها الأسماك الكبيرة أولاً فترقد وتموت ويحملها إلى الجراب، فإذا ما انتهى أمسك السالية من مقبضيها وأرخى شباكها وانحنى لجمع السمك، يحصر بعضه في زاوية ويهبط بالسالية إلى الماء فلا يكون للسمك مفرٌّ غير المرور أعلى السالية، يرفعها بسرعة ويضمّ مقبضيها بيده اليمنى إلى الأعلى ويصرّ الشبك باليسرى حتى إذا ما نزل منه الماء وضعه في الجراب. وهو إذ يلاحق السمك بالسالية يثبت رجله اليسرى ويخطو باليمنى فيأخذ مشيه شكلا مستديرا يناسب استدارة السرّ. يفعل ذلك مراراً، فإذا انتهى عالج سياج السرّ،

1- خشبة قصيرة تنتهي بحربة.

ورمى بقايا السمك المنهوش المأكول خارجاً، ورفع بقايا المعارك فيه. يقتل السرطانات الكبيرة ويقسمها إلى نصفين طعاما للسمك القادم.

وربّما دخل الحظرة مرتين في اليوم الواحد بعد جزرين متفاوتين، وربّما دخل الحظرتين البعيدتين: الهاشمية وأم الجنم في منتصف الليل إذا صار الجزر في تلك الفترة وكان انخفاض الماء كبيراً. يعرف البحارة هذا النظام ويتتبعونه يومياً ويلحظون تغيراته.

ولأنّ المسافة من الشاطئ إلى موقعي الحظرتين يتجاوز الميل يستعين محمد بحمار وعربة يسير بهما بين البساتين في الظلام ويشقّ الهدوء بصوت العربة في علوها وانخفاضها في أرض غير مستوية، وقرقعة أجراس صغيرة في عنق الحمار. الرحلة تجعله يقظاً لكن رائحة المشموم والحناء بين سياجات البساتين تدخل فيه الخدر وبعض الأمنيات. البحار الذي يوقظ فيروز البحر لا ينام.

وهو يغذّ السيرَ بين سياجات البساتين المتموجة، المصنوعة من سعف النخيل وحبال ليف جوز الهند، يرى في أعالي النخيل ما يشبه الجنّ تقفز من رأس نخلة إلى أخرى، يلمع خوص السعف المبتل بالندى فيرى

أرواحا منفوخة في أشباح ووجوها لا يعرف أصحابها، أرواح تحوم، تصعد النخيل وتهبط في لمح البصر، الليل للجنّ والنهار للأنس.

يتذكّر محمد كيف كان الفلاحون يرهبونهم بالجنّ كلّما جاء وأصدقاؤه الأطفال لجمع الخَلال الأخضر، الهشّ، الناضج تحت النخيل في البساتين، قبل شروق الشمس بقليل، يصوّب الفلاح حجراً نحو عذوق النخلة فيسقط الخلال غزيراً ومعه يسقط الحجر، يفزع الأطفال ويتنادون، يرهب بعضهم بعضاً: جنّي بوصْنَيج في رأس النخلة، فيختفون في لمح البصر.

يتجاوز سياجات البساتين فيبدو له البحر، تصله رائحته فيرتاح خياله، بالكاد يبدو خطّ الأفق مضيئاً.

ينطلق الحمار إلى الحظرتين دون إرشاد. المسافة ممتلئة بالظلمة ورأس الحمار ومضة تشقّ الظلام، أصوات بعض الديكة تأتي من البساتين.

لحظتان لا ينساهما أهل القرية: حين يشقّ برعم تراب الأرض، وحين تجرح عيونهم ظلام البحر، الحياة هنا كلّها: شقّ وجَرح.

الحمار يبطئ من سرعة العربة قليلا قليلا إذا شعر بقرب وصوله إلى إحدى الحظرتين، يساعده الماء،

يبطىء الحركة ويكتم الصوت، وعند الحظرتين يكون مستوى ماء البحر إلى أسفل بطن الحمار، هذه أقصى درجات الجزر في هذا الموقع؛ لذا يتعب محمد في دخول هاتين الحظرتين. ينزل، يخوض الماء ويباريهما، يسمع أصوات أشخاص وسعلات من بعيد. يتذكر دائما قول بحار قديم من القرية:

- إذا ناداك أحد في البحر لا تعرفه لا تذهب إليه، سوف يستدرجك إلى البحر العميق ثمّ يسحبك إلى القاع.

لا تدعه يغويك!! ففي الاستجابة موت مؤكّد، لا تلتفت إلى صوت لا تعرفه!

لا تدخل البحر وأنت مرهق أو مقهور أو حزين أو منشغل البال والخاطر كثيرا، فأرواح هؤلاء الناس ليست لهم وليست ملكهم فيتمكن منهم أبو مغوِّي فيغويهم إلى موت واقع.

لم يلتق محمد بأبومغوي مرّة واحدة لكنّه يذكره كلّما صار وحده يسمع أصوات أشخاص وسعلاتهم في ظلمات البحر، وفي النهار يلتقي بولد ابليس كثيراً، والتقت يداه برزق العائلة والناس أكثر.



سْلوم الشمس

ينتهى محمد من مباراة الحظرتين عندما يعمّ ضوء الصباح الذهبي البحر.

يرى عربات البحارة تسير بعجلة نحو ساحل القرية يحملون أرزاقهم وتعبهم، وربّما لوّح له أحدهم من بعيد فيفرح ويرفع يده إلى أقصاها، يأخذ السمك إلى جزّاف في القرية يبيعه له، يفرغ الجراب من السمك على حصير، يسلّم عليها ويحيّيه ويغادر. سوف يلتقيان لاحقا ويضع النقود في يده فلا ينظر محمد فيهما ولا يقول غير:

– الله يغنيك.

يقصد محمد بيته، يفطر مع زوجته وولديه الصغيرين، ويغادر إلى البستان، يسأله عيسى عن صيد اليوم والذين التقى بهم في البحر، يسأله عن ولد ابليس أيضاً.

لاحظ عيسى ومحمد أن سمك الچوچبية التي جُدد بناؤها في تناقص، وأحيانا لا شيء فيها. سأل عيسى محمد عمّا إذا كان ثمّة عيب طارئ في الحظرة، لم يلتفت إليه أحدٌ: تهتك في السياج، خروقات في السرّ، وهل يجدّ باب السرّ محكما لحظة دخولها؟ نفى محمد كلّ ذلك.

– **الرزق على الله والبحر يتغيّر. المعين الله.**

أنهى عيسى الحوار بذلك دون أن يتوقف عن فتح الحديث حول الچوچبية مع أخيه محمد كلّما عاد منها. جاء في باله أن يسأل أخاه عن مزاجه وقت الدخول:

الرغبة والجرأة والشجاعة.

هل يدخل الحظرة وهو خائف؟

لكنّ ذلك غير وراد في أولاد رجل شجاع مثل علي بن غانم. اقترحت خزنة مراقبة الحظرة، لكنّهما لم يرحبا كثيراً باقتراحها؛ فلا فراغ في البحر ولا فراغ في البستان، وأهل القرية لا يقتربون من حظور غيرهم، أموالهم وأملاكهم عليهم حرام.

– هل هو لص السمك ولد ابليس؟ قال عيسى

– لا .. ولد ابليس لا يدخل البحر، ولد ابليس

ينتظر البحار على الشاطئ ليأخذ أفضل الأسماك بالقوة. قال محمد.

– تقصد بقوة الشيخ!

– وبقوة الشيخ قد يترك الناس في حالهم أيضاً. قبل أيام أوقف ولد ابليس السيد خليل بينما يقود حمارته مشياً على الشاطئ، محمّلة بالسمك الكثير حتى تعسّر مشيها، أوقفه وطلب منه أن يخرج له أفضل ما عنده من السمك، فرجاه أن يأخذ ما يريد بسرعة لأنّ الحِمل ثقيل والحمار مضطرب في وقفته ومشيته، وقد بدأت حوافره تختفي في الرمال، لكنّه أبى إلاّ أن يُخرج له أفضل السمك. لمحه الشيخ من مصيفه فأسرع نحوهما وزجر ولد ابليس بعينيه فغادر! يقال إنّ الشيخ اشترى سمكتين كبيرتين من السيد! ومن يومها لم يعترض ولد ابليس للسيد خليل.

سَخِر عيسى ممّا يحدث للحظرة:

– إذا لم يكن بَدروه فهي السمكة الكبيرة، أحاطت القرية من جميع الجهات، التفَّتْ عليها؛ مدّت رأسها في سرّ الحظرة من الأعلى وأكلت السمك كلّه ولم تبق لنا شيئاً.

ضحكت خزنة، قالت:

- السمكة الكبيرة ماتت من سنين طويلة! دخلت سمكة صغيرة في خياشيمها فهلكت... يا محمد، لا تبارِ الحظرة كلّ يوم، ادخل يوما وامتنع في الآخر.

استحسن عيسى الاقتراح، فربّما يكون السبب طبيعيا جداً:

حركة السمك ودرجة حرارة الماء.

لكن لا فائدة، ما زال السمك فيها قليلا جداً.

مرّت أيام لم يتغيّر فيها حال الحظرة، ليس هذا هو تاريخ الچوچبية منذ أن اشترى أبوهم الحظرتين معا في نصّ الوثيقة: الچوچبية والهاشمية ودالية النخيل مع نبعها، المحدودة بالحدود الأربعة: شمالا بيت عقاب، شرقا بيت إبراهيم، جنوبا الطريق النافذة وشرقاً بالغرس، مع ما للبيع من ضمائم وحدود وتوابع وسماء وماء ونخيل وفسيل وما في حكمه ومجاريه، منذ أن اشترت العائلة كلّ ذلك لم تخل واحدة منهما من السمك الجيد ولا النخيل من الرطب اللذيذ.

وفي يوم دخل محمد الچوچبية قبل موعد دخولها بساعة تقريبا، وكان الماء عند الخاصرة، فلمّا اقترب منها

وجد شيئا يتحرك في داخل السرّ، شيئاً يصعب تحديده.

فالسرّ يُخفي.

تراجع إلى الخلف كثيراً، وغيّر مقصده، لكنّ عينه على الچوچبية. تأكّد له:

شخصان يخرجان منها ليس فيهما صفات أهل القرية ولا ملابسهم.

قصدا حظرة ثانية، ورفعا أقفاص صيد السمك من مجافرها، ثمّ رمياها رمياً في غير استواء وفي غير مواضعها ومجافرها، من غير تعميرها بالطعام أو حتى إغلاق بابها.

يتسامح بحارة القرية مع الذين يأخذون السمك؛ لجوع على أن يعيدوا الأقفاص إلى مجافرها، مُعمّرة بطعام الأسماك، ويحكمون غلق فتحاتها.

منْ لديه جرأة الأخذ، ووضع اليد بالقوة والتسلط على أملاك الناس وتدمير المصائد والأقفاص. ولقد مرّ بهما غير قاصد فحدجه أحدهما بنظرة. سرقا الحظور والأقفاص في جُرابين، ثمّ غادرا نحو الساحل الشرقي بعيداً عن القرية، لم يكونا مسلحين لكن في وجهيهما الشرّ.

وقع محمد في حيرة كبيرة بين أن يخبر أخاه عيسى أشدّ الناس شبهاً بأبيه علي بن غانم، وبين أن يُبقي الأمر سراً وتبقى الچوچبية منهوبة كلّ يوم. صارت بلا أسماك، وذاع ذلك في القرية.

صار لا معنى لدخولها، لكنّ أمله كبير في عزوفهم عنها، وهي التي تملأ جفرانهم بالسمك الوافر مع قربها من الساحل؛ لذا لم يهمل مواعيد الدخول إليها، ولم يوقف عيسى السؤال عنها.

وفي يوم وصل محمد إلى مطلع الحظرة كعادته، فوجد عيسى فجأة يمشي جواره، كأنّما خرج من قاع البحر.

كان يفترض أن يكون عيسى في البستان الآن! اضطرب محمد وأصابه ألم مفاجئ في البطن، ولم يكن ردّه لتحية عيسى موفقاً.

دعا الله في خاطره أن تجري الأمور على خير. وجدا الحظرة عامرة بالحركة المريبة، أشار عيسى أنّ ثمّة شيئاً يتحرك في السرّ، أسرع وهو يحكم إزاره ويشدّه كمنْ يشدّ حيازيمه لدخول معركة، أسرع محمد أيضاً، صار خلفه وهو يسمع صوت تنفسّ عيسى.

وصل عيسى إلى السرّ فاضطربت الحركة داخله كاضطراب أسماك كبيرة وكثيرة، نظر واحد من الفداوية من باب السرّ فرأى هياج عيسى فخرج إليه لكن عيسى أخرج المرقّد من جرابه وانقض على الفداوي وأصابه في فخده إصابة بليغة، لكمه في أنفه فنزف ولم يقو على الحركة. حاول الفداوي الثاني الخروج من السرّ فدفعه إلى الداخل بقوة ومحمد يصرخ به:

– يا عيسى... يا عيسى اتركهم... خلهم يولون

دفع عيسى الفداوي مرّة أخرى فكاد يسقط في الماء لولا أن اصطدم كتفه بسياج السرّ، ولأنّ عيسى يفوقه طولاً وبسطة في الجسم رمى بثقله كلّه عليه مقدماً قدمه في بطن الفداوي، أنزل رأسه تحت الماء فصار يعتفر، يحاول تخليص نفسه حتى كاد يقضي غرقاً.

أخرجه وقد غارت عيناه وازرق وجهه.

حمله عالياً ورماه خارج السرّ فسقط على أحد الأوتاد، ولم يحرك ساكناً.

سحب محمد الفداوي الأوّل خارج السرّ وهو يولول ويعدد ما ينتظر العائلة والقرية:

– عساهم الموت.

– يا عيسى هذا سمك!

– لا يا محمد هذا رزقنا... الأرزاق بالأعناق، وأنت تعرف أنّهم السبب وتسكت؟!

– نقدم شكوى ضدهم!

– شكوى ضدّ منْ؟ تعبنا من تقديم الشكاوى عن ولد ابليس وعنهم، الشيخ عبدالله بن صالح غادر البلاد ليشتكي، أبي غادر البلاد ليختفي، يعني نشتكي أو نختفي. تعبنا.. متى يأتي وقت لا تشتكون فيه ولا تختفون؟ متى؟ قولوا لي: متى؟

كان عيسى يصرخ ولم تهدأ فورة الغضب بعد. همّا بمغادرة الچوچبية، رفع عيسى الفداوي من ثيابه وسحبه خارج فناء الحظرة ورماه، فكان يمشي ويسقط.

بحلول العصر انتشر الخبر في القرية كلّها: أولاد غانم قتلوا الفداوية، جاءت امرأة من القرى الشرقية تعرف خزنة قالت لها:

– إنّهم يسألون عن أخيك عيسى، يقولون إنّه قتل فداوياً. هم يستعدون، قولي له: يشيل عمره. يغادر قبل الفجر.

لم تسأل خزنة المرأة عن اسمها، ولا عن قريتها،

لكنّها شكرتها. دخلها خوف كبير على أخيها، وحدها الآن تعرف أنّ فداويّاً قد مات، وأنّهم منتقمون لا محالة! شدّت عصابة على رأسها، جمعت إخوتها وأخبرتهم بشأن المرأة فضجّ البيت. وقف محمد وبقي عيسى جالساً في مكانه. يعرفون كلّهم أنّ الذين كانوا مطلوبين للشيخ تمكّن الفداوية منهم، لم يفدهم الاختباء في أحراش البساتين وخِيَس النخيل الكثيفة، والعرشان القديمة وسط البساتين، تمكنوا منهم، ونكلوا بهم طوال حياتهم، العقاب مستمر متجدد، لا حدود له ولا زمن لانتهائه. ليس للتنكيل نسيان في ذاكرة الفداوية. سقط خيار الاختباء سريعاً.

في اجتماع العائلة كثير من الصمت، قليل من الوقت. لا خيارات مع فداوية الشيخ؛ لذا قالت خزنة:

- **سْلوم الشمس يا عيسى.**

عرفوا المقصود، وبكت زوجته بحرقة. امتلأ البيت بالحزن والصمت، وكثير من القلق. عيسى ينظر في وجوه إخوته وينتظر.

- جهزوا القارب لعيسى، سوف يغادر عند سْلوم الشمس.

خزنة وحدها تتحمل مسؤولية القرار في العائلة في هذه اللحظات العصيبة، مثلما تحمّلت تبعات هجرة أبيها وغيابه المفاجئ وهي ابنة الخامسة والعشرين.

نهض عبدالله إلى الشاطئ يتأكد من أنّ القارب جاهز للإبحار، شراعه سليم وأنّ المجذافين فيه أيضاً، نقل محمد جرتي ماء كبيرتين وكيسا كبيراً من التمر، لن يحتاج عيسى أكثر من ذلك، الهجرة الثقيلة تحتاج إلى العبء الخفيف.

قضى عيسى بقية الوقت ساكناً لا أحد يعرف ما في خاطره، حَضَنَ زوجته وقَبّل طفله إبراهيم، حضن خزنة، حمل كيس قماش فيه ثوب ونعال، صعد القارب فدفعه محمد وعبدالله نحو الأعماق، فلمّا وصل الماء إلى سرهما تركاه في أمان الله، لوّح إليهما وانطلق يجذّف نحو قرص الشمس الذي أوشك يغيب بسرعة في ماء البحر. تبدو حركة الشمس أوضح في الغروب، الحركة السريعة لا يمكن ملاحظتها في المسافات والأحزان الكبيرة.

لم يَنمْ أحد في تلك الليلة، وفي الصباح امتلأت القرية بالفداوية على الخيول والحمير وبعضهم راجلين يبحثون عن عيسى، الفداوية لا يعرفون الوجوه،

يرافقهم ناس يعرفون كلّ وجه من القرية، دخلوا البيت دون استئذان كعادتهم فقابلتهم خزنة بوجه حازم:

– لا يوجد غير النساء والأطفال، اخرجوا من البيت... اخرجوا يالله... اخرجوا.

لا يسمعونها، ولا يلتفتون، كسروا الأواني وبعثروا حاجيات البيت، تسلّل أحدهم الجدار الخلفي على الرغم من أنّ الباب مفتوح، مزقوا أكياس نوى التمر، طعام الأبقار وبعثروها.

دخلت مجموعة منهم البحر وأسقطت مدود الچوچبية وأسوارها، ولم يبقَ منها غير أعلى جريديتن في السرّ.

توجهت مجموعة أكبر من الأولى نحو البستان، أسقطت أكثر سوره، نكست أشجار الموز بيسر، كسّرت أشجار الرمان والحناء واللوز والتين والعنب والتوت والمانجو والجيكو.

جرّفت الجداول وحقول الخضروات.

اقتادت محمداً موثوق اليدين من الخلف، واثنين من الفلاحين.

أضرم اثنان منهم النار في النخيل الصغيرة، وفي عشش الراحة ومخازن التمر بعد أن صُودرت أكياسه كلّها والحمير والبقر.

تغيّر شكل البستان فجأة والعصافير والبلابل والطيور تحوم فوقه في اضطراب. منعوا بحارة القرية من الدخول إلى حظورهم وأقفاص الصيد ورمي الشباك، وصار الناس يرون بوضوح دخول الفداوية لحظور الصيد وجمع ما فيها من الأسماك.

القرية محاصرة.

دخل الناس ضيق كبير، ونوى بعضهم الاحتجاج على الفداوية، وعزم آخرون على الهجرة إن زال الحصار، قال شاب من القرية:

- بتخلونهم على كيفهم؟ على هواهم؟ ما بتتحركون؟!

- كلها يومين وبيمشون! رد عليه شاب آخر.

-ندري إنهم بيمشون، واحنه بعد بنمشي! ما بتسوون شي ليهم؟ ولا شي؟! يدخلون على كيفهم؟ ياخذون على كيفهم، ويطلعون على كيفهم؟

- روح بعيد تعال سالم

- منهو راح بعيد ورجع سالم؟ كلكم بتروحون بعيد...

بعيد ولا واحد منكم بيرجع سالم، كل مكان لازم ياخذ منك شي، ويمكن ياخذ كل شي.

- يالله السلامة. قال رجل وهو يلوح بيده.

- والله بتصيرون سخرة لين ما تموتون كلكم! سخرة تخدمون في بساتينهم أو تنظيف المجاري دون أجر، ولا أحد فيكم بيرجع سالم، القرية ما قعدت ولا مرّة، من جدّي إلى جده إلى جد جده هذه القرية ما قعدت ولا هدأت،كلما طلع منها واحد وهاجر حطّ الله من قدرها ومن قدركم، الله لا يسلمكم.

- هذا بلاء من الله وقضاء وقدر... بلاء على قدر إيمان أهلنا. قال الرجل.

- يالله.. اقعدوا على فقحاكم وقولوا قضاء وقدر. والله لو وقفتون وقفة شجعان لقعد عنكم البلاء. بس هذي القعدة على فقاحكم لمتى؟! وولد ابليس الخايس يلعب بالناس المساكين عند البحر لمتى؟!

-ولد ابليس أخذ من سمك أبوك لين بس! كل يوم وإنت تدري! ما شفناك سويت شي أبداً.

– ورحمة أبي إنت بالذات ما تعرف أنا ويش سويت! أنا بنى آدم ما أحد يقدر يستفزني في المواقف!

– المهم ما نظلم أحد ولا نرتكب ذنب في حق أحد! قال فلاح مسن.

– ما تظلمون أحد؟! يا أبي ظلمنا أنفسنا... في ظلم أكبر من هذا الظلم؟ ها؟! نحن جميعا مذنبين لأننا نتحمّل ظلمهم! مظلومين وظالمين! من قال إن الضحية ما ليها ذنب؟! مذنبين ما دمنا ساكتين عن ظلمهم! فرحانيين لأننا مظلومين؟! هم ظالمين بكم، وأنتم مظلومين بكم.

– ليش كل هالحماس؟ والله القرية تحتاج عمل وصلاة وماتحتاج حماس! قال شاب.

– العمل والصلاة؟! بصراحة إنت قول، شفت قرية من غير عمل ومن غير صلاة؟!

– لا ما شفت!

– شفت قرية من غير حفرة دم؟! شفت قرية من غير حفرة ذل؟! لكن انشاء الله تغرق هذي الجزيرة في البحر وتفطسون كلكم ونرتاح.

–آمين! شوف لك ضباب واطلع فيه، هاجر أفضل

لك، بعدك شباب.

- ضباب؟! يوم اللي بهاجر فيه بطلع في موعد خروج الغواصين، يوم دشتهم، وأمام الناس كلهم، وما بهتم!

فقدت القرية أمنها، وتجادل أهلها، تجالدوا، تنابزوا، تعايبوا، وتكدر ذلك الصفاء المحسودة عليه، تساءل نفر عن جدوى حبس محمد والفلاحين، فقالت خزنة:

- وكيف يجعلون القرية تعيش في قلق وخوف؟!

بعد أيام فكّوا الحصار عن البحر؛ فأعاد البحارة ترتيبه وترتيب أنفسهم وصيانة مصائدهم وأدواتهم.

تحدث البحارة عن حجم الأضرار والخراب الذي أصاب أكثرها، صادر الشيخ البستان ومنع محمداً وأخاه عبدالله والعاملين من الاقتراب منه، غيروا سياجه كلّه وجعلوا عليه بوابة عريضة من الخشب المتين. هذه البوابات علامة أنّ البستان للشيخ. ما كان أهل القرى يضعون بوابات على بساتينهم ولا سياجات تفصل بين بساتينهم، لا حدود بينها غير معرفة الفلاحين وتسامحهم. أحضروا للبستان رجالاً

لا يعرفهم أهل القرية، وجعلوا على بوابته من الداخل مجموعة من الفداوية مسلحة ببنادق وسيوف ووجوه غليظة ترهب مَنْ يقترب، لكن الحجارة بدأت تسقط على الفداوية ليلاً، فيردون عليها بطلقات نارية قليلة عشوائيا في الظلام، بعد أيام هدأت الحجارة، ولم تهدأ غصّة أهل القرية.

لم تتحدث العائلة عن البستان كثيراً فقد نُهب من أبيهم علي بن غانم من قبلُ، ولم يَعنِها خيبةُ الوسطاء من تجار اللؤلؤ والعقارات بين أهل القرية والشيخ؛ الذين اهتموا بإيصال رسائل الشيخ وتهديدات فداويته للناس أكثر ممّا أوصلوا رسائلهم للشيخ، كان همّ العائلة مغادرة عيسى بسلام. وفدت نساء كثيرات إلى بيت العائلة، كان بينهن امرأة مسنة يناديها الرجال قبل النساء باسم العمّة، لا يعرف الكثير من النساء اسمها. جرى الكلام كثيراً على الحدث. قالت خزنة:

- الهجرة من هذه البلاد أمر لا ينتهي، غادرنا عيسى عند سلوم الشمس، وهاجر أبي علي بن غانم عند سلوم الشمس أيضاً، خرج الشيخ عبدالله وجماعة من الخيّرين يطلبون النجدة والعون من أهل الشيم في الوقعة الثانية على القرية، فلم يعد حتى قتله الحنين.

حاصروا القرية فلم يستطع دخولها. وحين استوطن تلك البلدة منعه شيء من مغادرتها، شيء لا يعرفه حتى هو؛ كلّما نوى العودة مرض! جرّب ذلك مراراً فعرف أنّها إشارات فرضي بها وسلّم. بعده انكسر الناس وقُتل كثيرون وفرّ آخرون بأطفالهم وهاجروا سرّا بما عليهم من ثياب عند سلوم الشمس. كان منهم أحمد بن إبراهيم الذي أوصى ولده يوسف بإخوته الصغار قال «لا أبرئ لك ذمة إن جلست على سفرة وليس أخوتك حولك ومعك». وهم إخوة كثيرون من أمهات أخر. مات أبوه في مهجره في شهر صفر. وبعد سنوات هاجر يوسف خوفاً على نفسه بعد أن أُحرقت البلاد عند سلوم الشمس ولم يعد. سمعنا أنّه ظلّ طويلا يعالج مرارات الهجرة وما جرى عليه، وأنّه اعتزل الناس والأصدقاء. (تضرب خزنة كفا بكف) هاجرت عائلة بيت معتوق كلّها عند سلوم الشمس، هاجرت عائلة محمد حسن عند سلوم الشمس، هاجر عيسى بن صالح وأحمد بن ناصر والحاج خليل بن إبراهيم وعلي بن أحمد وحمزة بن عيسى وزوجته فاطمة بنت أحمد ورباب بنت هاشم كلّهم عند سلوم الشمس، هاجر علي بن علي خائفا على نفسه وزوجته

وطفليه عند سلوم الشمس، تاركاً بيته ودكانه نهباً للفداوية الذين ما برحوا يضايقونه، ويتطلبونه، وفي يوم سقط طير حبارى جريحاً في بستان محسن بن محسن فقصده فداوية الشيخ ولم يعثروا عليه، اتهموا ابن محسن الذي أشار إليهم: «الطيور المجروحة تختبئ في أحراش البساتين»، لكن ذلك لم يقنعهم فأمهلوه حتى الليل، وعند سلوم الشمس هاجر ابن محسن ولم نعرف مكانه، هاجر عبد الكريم بن رضي عند سلوم الشمس، قيل تزوّج هناك وصار له أطفال لا يعرفوننا، وهاجر وهاجر وهاجر.

ظلّت خزنة تعرض أسماء الذين هاجروا، والنّساء من حولها يتداخلن بين الأسماء بالأسماء، وما نقص منها، كلّما ذكرت اسم رجل، أتمّته النساء باسم زوجته وأولاده، وربّما مالت امرأة على امرأة تقصّ عليها ما تيسّر من قصّة خطبة فتاة، حتى ضجّ المكان بالأسماء، ولم تتوقّف خزنة حتّى رفعت امرأة من بيتها صوتها قائلة:

- تعددين أسماء الذين هاجروا؟ إيه... سوف تتعبين ولن تتعب الأسماء، لا أحد يعرف كم صار عددهم، لا نعرف الأسماء كلّها، هم يهاجرون ونحن ننتظر.

– لا والله ليس العدد، لكنّه سلوم الشمس وخاصرة النساء، أهلنا المستقرون على نية الهجرة، يولدون، يبلغون صغاراً، يدخلون الغوص، يتزوجون غرباء بعيدين عن القرية، بعضهم يعودون ويعيشون حياة المهاجرين، يغيبون أكثر ممّا يحضرون، الذين يغادرون يبقون في عيوننا حاضرين، لا يكبرون، المهاجرون لا يكبرون في بلدانهم التي هاجروا منها... قلبي على عيسى.

– راحوا هاموا لجزر وسط البحر، لبلادين ما نعرفها ولا سمعنا عنها، القرية كلها مشردة وما واحد منهم رجع صاحي. قالت امرأة هاجر أكثر أهلها.

– البحر وقتٌ للهجرة، هذا البحر لا يشرح الصدر. قالت خزنة.

– ادعوا لأولادكم أن يهدّئ الله من روعهم في المسافات، أن يطويها، يجعلها قصيرة، فلا شيء يفرغ الإنسان من طاقته وقوته وعمره غير المسافات الطويلة، ادعوا لهم جميعاً رجالا ونساءً فإنّ دعاء الأمهات في أولادهن مستجاب، الدعاء الحار يطوي المسافات وكثرة الشكوى تطيلها، لا تدخلوا في الغياب، لا تجعلوا من الهجرة مأتماً، فالذين هاجروا لم يموتوا، هم

في مكان جديد. الله خير حافظ. قالت العمّة.

- لا نشتكي يا عمّة،

ولا نقنط،

ولا نيأس،

ولا نضعف،

لكن نفرش الذاكرة على قدر غدر سْلوم الشمس.

قامت خزنة، قبّلت رأسها فمررت العمّة يدها على ذيل ثوبها، تدعو لها. فلما همّت خزنة بالمشي أمسكت العمّة طرف ثوبها فتوقفت خزنة ونظرت إليها. كان وجه العمّة يرتعش. قالت:

-لا أعرف متى سيأخذ الله أمانته، لكنّي أشعر أنّ وقوع الأمر قريب جداً، وأكاد أسمع حفيف ريش أجنحة قبل الفجر، وتنفتح عيناي إلى أقصى اتساع لهما حتى أظنّ أنّهما لا يعودان. ماذا بقي لي من عمري بعد؟ يالله بحسن الخاتمة.

يابنتي، صارت الخطوة عندي سفر.

أرى مقبض الباب في يدي ولا أصل إليه! تضيق المسافة فتبعد الأشياء عنّي، عن سطوة يدي! شيء واحد يقترب مني وأعرفه جيداً.

المسافة همّ.

كنّا فتيات صغيرات، نقف متجاورات، نضحك ثمّ نبدأ لعبة، نبصق بقوة ونرى أبعد مسافة تصل إليها بصقاتنا، كنّا نفوز جميعا (تضحك). اليوم أبصق بكلّ ما بقي لي من قوة فتسقط بصقتي على صدري، «ومن نُعَمِّرهُ نُنَكسهُ فِي الخَلق»، ولا نكسةَ أكبر من هذه، المسافات موجعة... موجعة، مؤذية والمهاجر محصور وجعه في المسافات، فلا تزدن وجعه بهذا الحزن، أسندوه بالقلوب والرقاب، أسندوا خاصرته بحبّ الأمهات تتهافت المسافات بين خطوتيه، وإذا جاءت سَكرة الضَجر، وعزّ الحبّ، تظاهرن به، فليست القسوة في غياب الحبّ، لكن في حبس التظاهر به. لا تتركن الالتفاتة ولو كنتنّ في عبادة، فالذين أهملوها بوهم الإيمان تجاسرَ عليهم الذي لا يدوم. حدثتني أمّي قالت: روى لي أبي قال: كان يوم عيد، ونَفَس الصباح فيه غير. العمل فيه حرام في الأرض والبحر، خرج الرجال في ثيابهم البيضاء الجديدة، يغطّون رؤوسهم بغترٍ بيضاء، متجهين نحو مصلّى العيد في ساحة البرّية بين تلتين عظيمتين، الأولى في الشمال الشرقي والثانية أعلى قليلا من الأولى في الجنوب الغربي، هو

مصلى العيد وصلوات الآيات: الخسوف والكسوف والعواصف، وكلّ ما نخاف منه ولا نفهمه.

يلتقي الرجال في يوم أبيض، فرحين بانتهاء صوم شهر رمضان المتعب في جو حار ورطب وعمل مضنٍ في البحر والبساتين، يلقون السلام والتحية على بعضهم، ولا يتبادلون تهاني العيد إلاّ بعد الانتهاء من صلاة العيد.

فُرِشت الحُصر والمديد في البرية وتغيّر لونها، نادى مؤذنان فوق التلتين الناسَ بالإسراع لأداء صلاة العيد، تقدّم إمام القرية بعمامته وجُبّته الجديدة وبشته البنيّ وقد تحزّم بقماش أبيض، وأسدل غترةً بيضاء مطرزة من تحت عمامته، لا يراه أحد في هذه الهيئة إلا في صلاة العيدين، طاف بين صفوف الرجال وهو يلقي عليهم السلام، فوقفوا مبجلين له ومحترمين لقدره ومكانته، حتى وصل إلى مصلاه، أخذ مكانه فيه، وقفت صفوف الرجال، تقاربوا حتى صار الكتف بالكتف، الغني بالفقير، البحار بالفلاح، سدوا الخلل والفُرَج، لا غرباء. صارت البرية وادياً أبيض.

رُفعت الصلاة وملأت همهمة المصلين الوادي كلّه. فلمّا أوشكت على الانتهاء، علت أصوات من

جوار إحدى التلتين، فلم يلتفت أحد من المصلين، وظنّ آخرون أنّ أهل القرى المجاورة أنهوا صلاة العيد مبكرين وجاءوا زائرين لهم مهنئين على العادة المتفق عليها في كلّ عيد، نزوركم في عيد وتزوروننا في عيد، لكن الصرخات التي علت جوار التلة الواقعة شمال شرق الوادي ليست أصوات تهنئة، فاستدار بعض المصلين متأخرين ليروا سيوفاً طويلة تعلو وتهبط على أجساد المصلين بأيدي رجال كثيرين سود الثياب، ملثمين لا يتوقف مجيئهم من خلف التلة. ارتفع الصراخ أكثر ونادوا: غادروا البرية... غادروا البرية... الناس غير المصدقين توقفت الحركة فيهم وثبتت أرجلهم في الأرض وثقلت. كانت الدهشة تبقيهم في أماكنهم والسيوف تعمل فيهم، الثياب البيضاء اصطبغت بدمائهم. كنت طفلاً ورأيت قتلاً كثيراً وخوفاً أكثر فلم ينجُ إلا من فرّ إلى داخل البساتين أو تخلّف عن الصلاة، أمّا الذين فرّوا جهة بستان النافورة فقد هبط إليهم رجال من رؤوس النخيل ولم ينجُ منهم أحد.

عاد القتلة إلى البحر، شاهدتها وشاهدهم رجال من القرى المجاورة يمشون في الماء فلمّا بلغوا عمقه غاصوا فيه واقفين ولم يلتفتوا. علت الصيحات وتفقد الناس

قتلاهم، قالت امرأة اتسعت عيانها ساعة السرد، وانخفض صوتها وتهدّج، كأنّ الواقعة للتو انتهت:

– لما بلغت الصيحاتُ القرية فرّت النساء بأطفالهن مذعورات من بيوت السعف والأكواخ وقصدن بيوت الطين القليلة جداً، ولذن بها. غصّت سطوح منازل الطين بالنساء، يضغطن على أعينهن، يضاعفن فعل الرؤية في صمت شديد، ويترقبن مجيء أسماء القتلى من رجالهن وأولادهن، كانت الأسماء تحمل موتها. اللواتي لا صبر لهنّ هرولن نحو مكان الواقعة، الذين قتلوا صاروا في ضيافة الرحمن وهم عباده الصالحون. ولشدة الحرّ وهول المصيبة وبغتتها، بقي الناس مرهقين خائفين، ولكثرة القتلى وإنهاك الصيام وشدّة الحرّ دفنوا كلّ أربعة رجال في قبر واحد في الجانب الشرقي من مقبرة القرية.

رأيتهم مخلوقات سود في هيئة رجال طلعوا من أعماق البحر، وهبطوا من رؤوس النخيل، يحملون رايات سوداً، ثيابهم سود، وجوههم سود، وقلوبهم سود أيضاً.

ظلّ الناس يقولون ويقولون، فلمّا هدأوا قال بحّار

لا تذهب رائحة البحر من يديه:

أنا رأيتهم أكثر.

رأيت سفنهم فظننتهم مسافرين وصلوا في غير موعدهم. المسافرون لا يصلون في الليل، فلمّا صارت صدور سفنهم جهة القرية، أنزلوا مراسيهم بحذر الخائف قبل أن يروا رؤوس النخيل، فمَنْ يرَ رؤوس النخيل ترَه رؤوس الناس. ظلّوا يقظين، حتى مطلع الفجر الكاذب، فلمّا هبط الفجر هبطوا في الماء واختفوا فيه. كان الرجال كثيرين، لكنّي ظننتهم مسافرين في غير حال أو بحارة يجمعون المحار أو أعشاب البحر.

كان بيتي جوار المقبرة؛ أسمع في الصباحات من كلّ يوم وقبل شروق الشمس بقليل، قرآناً يُتلى بصوت جميل من جهتها الشرقية.

- لماذا لم يقاتلهم الرجال؟ لماذا تركوهم يفعلون فيهم ما يشاؤون؟ قالت امرأة، فردّت عليها العمّة بعد استراحة من صمت غير مرتّب:

- لو أنّهم التفتوا ما امتنّ الموتُ لهم! هذه القرية لا تحارب ولم تدخل في حرب قطّ، وأهلها مسالمون حدّ الفرح بالذنب، رجالها يحزنون في حزن غيرهم،

وربّما بكى الواحد منهم لكن في بكاء غيره، يدخلون بساتينهم قبل شروق الشمس، ويغادرونها بعد الغروب، فيهم عزلة البساتين، ينتظرون شيئاً ما على وشك المجيء. أهل القرية لم يحملوا سيفاً، لديهم سيف واحد فقط، صدئ، لا يقتل دجاجة، ملفوف في قماش أخضر، وله مقبض قلق من فضة، لا يُخرج إلا في تشابيه لواقعة قديمة جداً جرت هنا في القرية. قيل إنّ رجالا في هيئة وحوش في وجوهها اللحظة الأخيرة للغرق، قتلوا رجال القرية في البحر والبساتين والسوق وفي المساجد والكنائس والأديرة، الذين يتعبدون في قِللهم وصوامعهم وفي مياه البحر. فرّت النساء مذعورات، ساعدهن رجال على الاختباء في جرار الماء الكبيرة في المخازن وزوايا البيوت، كان الرجال يكسرون بعض الجرار من كتفها ويدخلون نساءهم، ويغطّون فوهات الجرار بسعف النخيل أو بقواعد جرار قديمة، ظلّت النساء هناك ينتظرن وعد الرجال لهنّ بالمجيء لإنقاذهن.

لكنّ أحداً منهم لم يأتِ!

صارت الجرار قبورهن وقبور أطفالهن، نساء عليهن حليهن وذعر المنتظر، ووجوههن إلى جهة فوهة

الجرار كمَنْ ينتظر حركة الضوء فيها، جرار صُنعت من الطين النقي للحياة لا للموت، قيل إنّه في ليل ذلك اليوم الحزين مرّ رجل يهذي بين بيوت الطين والسعف:

- **لا تنتظر أحداً.. لا تنتظر.**

وكلّ عام حين يجيءُ موعدُ الواقعة تُشعل النيران، وتقفز النساء عليها، ويقفز أطفال من جرار كبيرة سُعداء يضحكون، لقد نجوا. يُختم اليوم بكسر الجرار، والدعاء بأن يحفظ الله هذه القرية. يُلفّ السيف في قماشه الأخضر للعام القادم.

انحنت عليها خزنة مرّة أخرى، أحاطت كتفيها الضئلين بحُنوّ ذراعها وقبلتها بآهة طويلة من الخاصرة: سنلتفت يا عمّة إلى أنفسنا.

- اللي مشوا بيرجعون اليوم أو غير اليوم بيرجعون. أنا بنتظرهم. قالت امرأة تحمل طفلتها على ذراعها.

- الناس الزينة تمشي، تهاجر، الناس الزينة ما تظل ولا تنتظر! قالت امرأة مكتوفة الأيدي فردت عليها أخرى.

- اللي مَشوا مَشوا.

فاستنكرت عليها النساء يأسها فغضبت وصارت تحمي يأسها بسرد أسماء الذين مشوا في الضباب ولم يعرف أحد أين هم حتى الآن. تهيأت العمّة للمغادرة، وهي تردد:

لا يسخر أحدٌ من المسافات!

زَهرة الرمّان

لا تُرى النساءُ في هذه القرية إلا واقفات.

الوقت ممتلئ والفراغ نكرة.

ربّات البيوت الصغيرات شاعرات.

الكبيرات حكيمات السيرة والكلام، والصغيرات رسولات الحبّ والغرام، المريضات ينهضن في الصباحات، ليس لهن الشكوى في حياة تمرّ بين أيديهن أمكنةً مائعة في الزمن، حتى قِيل ليس في سِماهوي نساءٌ مريضات!

الأمّهات اللواتي هاجرن بناتهن في الضباب يُعدن سرد قصة هجرتهن مرّات، بصيغ مختلفة، وربّما ظهر فيها ناس جدد سوف يختفون في المرّة القادمة!

تمرّ بهنّ خزنة واحدة واحدة، تتفقدهن عصراً وربّما في الصباحات إن كان الأمر طارئا. تلقي السلام عليهن عند عتبة الباب، لا تدخل ولا تغادر حتى تأتيها

ربّة البيت وتحييها، يترجينها لتجلس فلا تستجيب إلاّ لواحدة هاجرت ابنتها عروساً في الضباب، فلم تعد تنامُ لألم في خاصرتها بعد اليوم الثالث للهجرة .

تُصغي خزنة للقصة بمزاج الزائر الخفيف الذي يضيء البيت بطلته، تقصد الخاصرة وتمسح عليها بسيرة الأمهات الصغيرات الجميلات العائدات من المهجر فتنهض المرأة مستندة على كتفها، فإذا استوت واقفة قبّلت خزنة في خدها، الشكر هنا قبلات من الخاصرة.

هذا الصباح قصدت خزنة أوّل البيوت شرق القرية بين الساحل الشرقي وسياج بستان عظيم، عرفت أنّ ربّة البيت تعرضت لحادث بينما كانت تنتظر أن يبلغ الجزر أقصاه. امرأة هاجر زوجها وولدها خوفاً على حياتهما وتركاها وطفلين غير بالغين، وسبعة أقفاص لصيد السمك، وحظرة في أوّل البحر تباريها وتعيش منها. كانت خزنة في وسط البيت الصغير تصغي واقفةً لسردها، لا تحوّل وجهها عنها. وعندما تروي المرأة لا تهمل شيئاً، تقول وقد أرخت مشمرها الأصفر المزخرف بوردات زرق صغيرات على رأسها كمن فرغت من صلاة:

– ماذا تفعل مَنْ يهاجر عنها زوجها وولدها؟

صار نومي من وقوف، واليقظة في الحلم الواحد مرّات، الحلم في اليقظة أكثر منه في النوم، أسرح ولا ألتفت، أنسى الطعام على النار، رأسي لا معنى له، دائمة الغضب من طفليّ حتى صارت حياتهما في البحر والبساتين أكثر منها في البيت، وفي الليل أتوسّد خواطري وأتوسّلُ النومَ أن يأتي، كأنّه يعرفُ فيلهو برأسي، بي. أنام لأنّي تعبتُ من اليقظة، فأحلم كأنّي أخيط تبناً. أصحو من نوم لا نومَ فيه، وكأنّهما هاجرا قبل قليلٍ. هل رأيتِ هجرةً لها اسم منّا؟ هل رأيتِ هجرةً تتطاولُ على مزاج الذين لم يهاجروا؟ سمعتُ العمّة مرّة تقول: كنّا ننشرُ الحزنَ على فضائل الوقت فيسكن! فعلتُ ذلك مرّات ولم يسكنْ ولم أسكنْ؟

– يحدث إذا لم تلتفتي إليه!

– كيف لا ألتفتُ إليه وهو في عينيّ وهما عيناي؟!

– ما الذي حدث؟

قبل أيام قصدتُ الحظرة على عربة الحمار مبكرة، أعرف أنّ موعد الجزر لم يحن بعد لكنّي في عجلة الوقت تمنيت لو يبكّر البحرُ في جزره ذاك الصباح، أنجز عملي فيه وأعود لبيتي، توقفت على الشاطئ

انتظر الجزر، أخيط ما تهتّك من شباك جمع السمك في الحظرة، أشدّ الخيط بالخيط، والأمل بالأمل أن أكون أوّل منْ يلتقي بزوجي وولدي عائدين كأنّهما يمشيان على الماء، وقفت لا أرفع رأسي حتى ظنّ ولد ابليس اللعين أنّي لا أرى، كان الجراب خلفي في أوّل العربة وبه مرباع غليظ، وآخر أحتفظ به لشدّ الأوّل على كتفي حين يكثر السمك في الحظرة ويهبط الجراب خلف ظهري، اقترب بدوره أكثر حتى كاد يلمس وجه الحمار وأنا لا أرفع رأسي، وصار يقول لي كلاماً لا يقوله إلا رجل يتقرّب من زوجته، رفعت رأسي نحوه وقد ضاق البحر كلّه بي، رأيتُهُ يجسُّ النظرَ فيّ فأخذت المرباع وقفزت على الأرض، رفعت المرباع وقلت له: شوف يا ولد ابليس يا حقير، والله إن كررت ذلك نزلت على رأسك بالمرباع، نحن أشراف؛ فتراجع ثمّ ولّى وهو ينظر نحوي كلّما قطع مسافة، ألا يستحون؟

دخل خزنة ضيقٌ شديد فشدّت إزرها بوقائع اللواتي هاجر أولادهن وأزواجهن، وعدتها بزيارتها قريبا لتطمئن عليها، وبينما كانت خزنة تتحرك نحو الباب كانت المرأة ترجوها أن تجلس ولو قليلا، فتتعلل لها بكثرة الأعمال وقلّة الوقت:

- النساء هنا يُخلَقن واقفات في البيت والبساتين والبحر، وحين تجلس النساء لا يُسمّى البيت بيتاً، تبور أراضي البساتين، يغور ماؤها ويموت البحر. ما حدث لك عظيم عندي، وأنا أعدك أنّ هذا لن يحدث ثانية ما دمتُ على قيد الحياة.

دخلت خزنة بيت العمّة تُعيدها في فراشها، أمسكت يدها بحُنوٍّ بالغ:

- عرفتُكِ من صوتك قبل لمسة يدك، راحت العين، وقد كنتُ من قبل أقطعُ الشَوف، أقف عند الشاطئ أخبر الناس عن قوارب البحارة عن أهلهم العائدين يوم يهيج البحر، أخبرهم بالقارب وصاحبه فينكر بعض الناس عليّ ذلك حتى يصل القارب. راحت العين، ومات القلب.

- أنت عيوننا وقلبنا.

قبّلت العمّةَ في رأسها، فنشطت، كأنّها تستعدّ للكلام. ثقيلة وطأة الكلمات عند امرأة ظنّ الناس أنّها لا تمرض ولا تموت:

- القلب؟! يهبط في أسفل ضلوعي، وكأنّ صدري خُلُّو منه، وكأنّي أعيده مكانه فيهبط، أعيده مرّة أخرى

فيهبط، ما حدث لي هذا من قبل.

- قلبك ممتلئ بالحياة يا عمّة، لولاكِ متنا.

- ملأَ عمري قلبي، والقلبُ الممتلئ بالعمر يتعب، يهبط، يُوخز مثل الحليب في الصدر، ينبض مثل قلب طفل لوقت قصير ثمّ يمرض، وربّما يسكت. قلبي لا مكان فيه لزمن جديد، كلّ شيء فيه اسْتُوفِيَ. جمدت العين ياخزنة. يالله بحسن الخاتمة.

- يا الله...

غادرتْ خزنةُ العمّة، دخلت بيت أمٍّ هاجرت فتاتُها العروسُ في الضباب. بدأت الأمّ بالكلام بعينين لامعتين فيهما فرح تغالبه دمعة:

- شفتي؟! سميت النخلة التي أمام الباب باسم حبيبتي بنتي، هاجرت بلا حناء بلا عطر بلا مشمر عرس، بلا ...

خنقتها العبرة فحضنتها خزنة.

للنخيل في قرية سِماهوي أسماء المهاجرات.

كلّما هاجرت عروس غرس أهلُها نخلةً يكون لها اسمها ورائحتها وشمائلها ونضارتها، طولها طولها وصورتها صورتها، تمرّ النساء بجوارها في طريقهن

إلى ماء عين ريّة، فيلقين عليها التحية والسلام وتغني صديقة لها:

يا من شعر راسها يسحب الى الذيلي

فَيتبَعْنَها الصديقاتُ بالصوت والخجل ونصف الضحكات والعيون أمنيات:

باهيل باهيلي باهيل باهيلي

كلّما غَشَي الضبابُ القرية، تفقّد أهلُها نساءَها الصغيرات في الصباح.

يهبط الضباب فجأة ليوم وربّما يومين وقد لا يأتي في اليوم الثاني، لا أحد يعرف مواعيده ولا إشارات زمنية لغشيانه نخيل القرية غير دخول الشتاء، لا أحد يعرف أيضا كم يبقى ساتراً لنية المهاجرين والمهاجرات فيه، لا ضمان في الضباب، الضمانة كلّها في العجلة وخفّة التحية الأخيرة للأقرباء ثمّ الهجرة.

تترقب النساء الضباب أكثر من الرجال، فالضباب في القرية يعني عرساً جديداً يُعلن فجأة لكن في غياب مكتوم. فمنذ افتتان ابن الشيخ بالدخلة الأولى على نساء عبيده في ليلتهن الأولى، ثمّ تحوّله ومحاولته لفعل ذلك مع كلّ امرأة في ليلة دخلتها وهم يتكتمون

في أعراسهم ويتخففون من صخبها، وصارت لهم طرقهم في التكتم عليه. يغادرون إلى القرى البعيدة ويجعلون مراسيم أعراسهم في ليلة واحدة، يغادرون إلى الجزر القريبة ثلاثة أيام ويعودون، يغادرون في الضباب ولا يعودون.

القرية بعد العشاء أضواء خافتة تتسلل من بين السعف المجدول للبيوت، أصوات أمواج البحر وطيور الليل وهمهمة متقطعة لسمّار نادرين. أم تسرد لزوجها حزمة شكاوى على أولادها جمعتها في نهار واحد، والأب في خدر النوم، بدأ يَسمعُ هواء تنفّسه. القرية في الليل صورة بالأسود المزرقّ والأبيض، أصوات كلاب من بعيد، أصوات حشرات لا تنقطع، رمل الساحل يلمع بضوء القمر والنجوم، وحين يغشى القرية ضبابٌ لا أحد يعرف عمّا إذا كانت القرية في مكانها أم هبطت تحت ماء البحر، ضباب الجزر مطر ودخان ينتظران في الفضاء. وفي الهجرة انتظار له صوت لا ينقطع ضجيجه في الأذنين حتى يكون الشخص في مكانه.

لا يستغرق إعداد عروس سوف تهاجر في الضباب أكثر من المدّة التي يستغرقها هبوط الضباب نفسه من

رأس النخلة إلى وسط جذعها.

لا زينة،

لا خضاب،

لا حناء،

لا عطر،

لا كحل في العينين، ولا بهجة في الوجه.

البهجة وحدها كانت تستغرق وقتاً طويلاً لتصبح علامة رضا وسلام في وجه العروس. رسم الخضاب وطقوسه يستغرق أياماً ولا يُمحى من يدي ورجلي العروس إلا بعد أن ينقطع خجلُها من زوجها. لا شيء من طقوس العرس في القرية يُقضى سريعا، لا عرسَ مخفيٌّ في القرية، العرس إشهار طويل، فرح يدخل بيوت القرية من بين جدائل سعف جدران البيوت وجدائل شعر العروس الأسود، العرس ثلاث ليال: طقوس في النهار والليل يُضاء بمواقد الزيت ووجه العروس. العرس خضاب، كحل في العينين، سكن، فرشة مزينة بالقماش الملوّن والمرايا الطوال فيها رسوم طواويس تنشط في الليل وتطير وتعود في الصباح ساكنة، تتوسط رأس كلّ مرايا رمانة خضراء

أو حمراء، فتنعكس رمانتين صغيرتين متلاصقتين لا يُملّ النظر في نهضتهما. فلمّا جاء الخبر عن نزعة الشيخ صار العرس هجرة في المتبقي من الليل، والمتبقي من البهجة، والوقت والزينة والرمان خيال. أخبار الشيخ تغادر القصر صغيرة وتكبر وهي في طريقها إلى القرية، لا يليق أن يكون للشيخ أخبار صغيرة.

عندما يهبط الضباب، تُهيئ الأم عروسها في تكتّم الضباب.

توقّف بكاء الأمّ، جلست خزنة جوارها، قالت الأم:

- ألبستُها ثوباً واحداً جديداً عليه أغطية لا تُلبس في عرس، أعطيتها كيساً من القماش فيه كثير من التمر، فخرجت معها وحدنا يلفّنا الضباب، طلبت من أبيها ألاّ يخرج معنا فيُلْفِت. قصدنا موضع القارب على ساحل البحر، هناك وجدت زوجها وصل باكراً خفيفاً كبحّار نشيط يهيئ قاربه للصيد لا للرحيل. ولأنّ الضباب أمام البحر أكثر كثافة؛ انتظرنا الزوج عند الشاطئ، خضنا معه البحر حتى وصل الماء إلى الركبة. ساعدته في تمكين حبيبتي من الركوب والاستقرار في القارب، أوصيته بها وغادرا على عجل.

رأيته يسحب القارب وينظر إليها، حتى إذا ما بلغ الماء صدره قفز بخفّة فيه وغابا في الضباب. قال لها قبل أن تركب القارب: لا تخافي، البحر سجادة صلاة، وأنّه دخل الغوص مرتين ويعرف جهات البحر، لا تخافي هذا بحر البنات، البحارة لا يخشون الموج فيه، لكنّهم يخافون الاصطدام بالقاع، لا تخافي فالخرائط في الفؤاد والعلامات نجوم في الليل وطير في النهار.

- لا تقلقي عليها، فلم يدخلني خوف وجواري شاب واحد فقط من القرية. للشباب هنا حذر العصافير ونخوة البحار الأصيل. لا تخافي. البحر لا يملكه أحد، ولا حدود فيه. سوف يصلان إلى وجهتما بسلام، يعيشان فترة حتى ينجبا ولدهما الأوّل، بعدها يعودان إلى القرية ، وتقر بهما عيناك، وتفرحين.

-لكن الكثير منهم يستقرونّ ولا يعودن وتضيع أخبارهم ثمّ يضيعون.

- البريد في جوف الرجال العائدين من وراء البحار، الرجال المتعبين بريد المنتظرين، خبر واحد يشعل القرية فرحاً، لكن لا خبر يأتي بالتدريج، الخبر في سِماهوي يهبط فجأة، رسالة صغيرة منهما، فيها خبر صغير يشعل القرية كزهرة خلود: رزقنا الله بطفل.

الطفل عودةٌ يا أم مريم... الطفل ندى المنفَى اليابس. لا تقلقي، عندما يعودان أبوين جديدين سنقيم لهما العرس ونفرح مرتين.

- عرس بعد ولادة؟!

- نعم، وضحك متواصل وكحل كثير.

تركتها وهي تضحك، عادت إلى البيت، جلست صامتةً، تُعيد ترتيب تعبها، مزاجها وهمّتها، تذهب إلى كلّ شيء في بالها، وتسأله، تستفسرُ عن آدميته وعن الذي صاغه بهذا الشكل، وعن ضحاياه أيضاً قبل أن تخرج أمّ إبراهيم من دارها وتحدثها عن حال النساء في جولتها، عن مرض العمّة، عن خوفها عليها، عن العرس في الضباب، وعن عيسى أيضاً:

- ما خذلني قلبي قطّ، عيسى سيعود إليكِ في يوم ما فاصبري.

وكانت خزنة تُوصي كلّ مَنْ يسافر، أو له نيّة الهجرة إلى أيّ مكان:

- إذا رأيتم أخي عيسى صدفةً في بلدة، في قرية، في جزيرة، في بحر، في مكان، في فرح، في حزن، في غياب، أبلغوه عنّي وعن أم إبراهيم السلام، قولوا له: إذا

تزوجتَ لا تعد، لا أحد ينتظرك...

كانت أمّ إبراهيم تعرف ذلك عن خزنة، فيزيد حبّها لها، ومكانتها عندها.

في فجر اليوم التالي حدّثت خزنة البحارة عمّا حدث عند الشاطئ، عرفتهم بالمرأة، وحثّت البحارة على الفزعة إليها، والتناوب على مساعدتها، وأن لا يترددوا في التغلّظ مع الغرباء عند شواطئ القرية، وتحسيسهم أنّهم يرون كلّ حركة عند البحر، ذكرتهم باليوم الذي حاصرت هي ونسوة لصاً في غياب الرجال من دون خوف ولا تردد، وكيف طرحوه أرضاً وأحكموا قيده.



عُيون السَمك

ذكور القرية البالغين كلّهم غواصون على اللؤلؤ.

إلّا إبراهيم بن عيسى غاص على اللؤلؤ قبل بلوغه بعامين.

فيه من أبيه: الجسد الأسمر الصلب، مقابلة الموت بالموت، وقلّة الكلام.

كلّما غاص على اللؤلؤ في الأعماق ظنّ أنّه على خطى الجنيات.

هنّ جنّ الأرض والغاصة جنّ البحر.

كان يرى أنّ الغواص الجريء الماهر أكثر عذاباً وضجراً من غير الماهر، وأنّ دينه أكبر من أيّ غواص، يغرقونه بالدين كي يبقى رهين دائنيه، لكنّه لا يسأل عن ذلك فالجرأة في هذه القرية لا تبدأ بالأسئلة بل بطاقة الجنّ في الشخص.

في إبراهيم ما ليس في أبيه قبل هجرته: الخوف المحصور في الغياب.

حين هاجر أبوه عيسى بن علي بن غانم قرية سِماهوي كان عمره سبع سنوات، يأخذه معه إلى البستان حتى الظهيرة، ماذا يفعل طفل في بستان نمت نخيله وأشجاره ونباتاته على خاطر الأرض. لا هندسة، لا أشجار مرتبة، لا نخيل مصفوفة متتالية، لا مسافات معروفة بين الأشجار، بدايته لا تُحدّ ولا يشار إليها ونهايته لا تقابل البداية، كلّ شيء ينمو أنّى يشاء، بستان يشبه إنسانا. يطارد إبراهيم العصافير على النخلات الصغيرات، تُتْعِبه، يتركها يحاول صيد الفراشات الصغيرة، ينافسها خفّة. يجمع اللوز، يشمّه، يقضمه فيمزّ بشفتين اعتادتا طعم الحليب. يقطف التين، يأكل واحدة دون غسلها فتصيبه أشواكها الصغيرة في لسانه، يشكو ذلك إلى أبيه.

- إلاّ التين يا إبراهيم لا تأكله حتى تغسله، الآن لا فائدة سيذهب الشوك لوحده بعد قليل. لا تمرر لسانك على أسنانك.

يسأل أباه عن كلّ شيء، وعن رائحة النعناع من أين تأتي. يطلب منه أبوه أن يقطع ساق نعناعة نائمة جوار

جدول الماء من أيّة جهة، ويزرعها في أي مكان جوار الماء. أوّل الدرس النعناع؛ ينمو من أيّة جهة وفي أيّ جهة، لا بداية له ولا نهاية، كلّما تعرض لقطع استقلّ نبتة جديدةً. يقطع إبراهيم كثيرا، ويغرس كثيرا، فإذا عاد للبستان تفقد النعناع وابتهج، وإذا صار البحر جزراً يضعه أبوه إلى جواره على عربة الحمار ويدخل معه لمباراة حظور السمك. وكان لسرعة العربة وعدم استواء الأرض وخفّة جسده الصغير، يطير ويهبط على لوح مقعد العربة.

يعود لأمّه فرحا يروي لها الرحلة كلّها وحال السمكات بعد أن استقرّت في جراب الصيد. يقول ما لا يقوله أبوه لها. فجأةً قيل له إنّ أباه سافر، وإنّه سوف يعود قريباً، يبتهج بالبحر أكثر، يسأل عن أبيه أكثر ويلوذ بالنعناع.

إبراهيم ورجال سُمر، نحيفون، متجهمو الوجوه، لم يتوقفوا عن نقل حاجيات رحلة الغوص على اللؤلؤ إلى محمل الغوص الراسي بجوار محامل أخرى في المياه العميقة جهة الساحل الشمالي الشرقي للقرية. يحملون الحاجيات على رؤوسهم وأكتافهم المائلة وفي عربات الحمير مسافة لا بأس بها. يتوقّف بعضهم دقائق

للراحة، لكنّ إبراهيم لا يفعل ذلك، يسخر من تعب بعضهم، يتراشق معهم بالنعوت ويبتسم.

امتداد ضحل واسع بين الساحل والمياه العميقة. لا يتجاوز ماء البحر فيه جوزة الرِجل. تمتلىء المسافة بالرجال وعربات الحمير والحركة، تنقل مؤنة الرحلة: رز وسكّر وتمر وليمون مجفف وقهوة، حُملت وجبة العشاء الدسمة الوحيدة، لحم ورز، لن تتكرر خلال الرحلة كلّها، لا فرق -على الأرض- بين الغواصين والسُّيوب والرَضافة والتَّبَابة[1]. النُوخذة والجَعدي وحدهما يشرفان ويسجلان كلّ ما يحمله البحارة للمحمل، ويتأكدان. هذا هو طاقم السفينة، ولكثرة السفن وتقاربها وتجاورها صار لون البحر بنيّا.

قبل الغروب بقليل أُنزلت الأشرعة وأخذ البحارة أماكنهم عند المجاذيف الضخمة القوية المنصوبة بزاوية مائلة قدرها خمس وعشرون درجة، خطفت المحامل

---

1 - السيب: الشخص المسؤول عن سحب الغوّاص من أعماق البحر عن طريق حبل. الرضيف: بحار حديث العهد بالبحر، يساعد السيب ويشارك في أعمال أخرى في السفينة. التّباب: غلام يخدم البحارة على ظهر السفينة. النوخذة: مدير السفينة وعنده يُجمع اللؤلؤ. الجعدي: مساعد النوخذة ونائبه، وهو الذي يسجل الحسابات وديون الغواصين وعدد مرات غوصهم وأيام عمل البحارة.

كلّها متتابعة ببطء شديد وعلت صيحات الدعاء:

- طالعة بحول الله القادر...

يسخر إبراهيم من طريقة تَجْذِيف البحارة؛ يُنزل طرف المجذاف في عمق الماء ويسحبه بقوة ممّا يسرّع في حركة السفينة وتقدّمها. وكان من قبل يستفزّ ثلاثة من أقربائه، يمسكون مجذاف قاربهم، يقابلهم بالمجذاف الثاني لوحده، ينزله عميقاً، يسحب ويسحبون، فينحرف القارب جهتهم ، يضحك فيتعللون بغياب ضبط وقت السحب!

بدأ النَّهام يغني منفرداً.

هذه لحظة وداع الأهل بحزنهم على الساحل بعيداً. امتلأ البحارة بالحماس وهم يردون عليه بكلمة «يالله» والمحمل يشقّ المياه الذهبية في اتجاه الهيرات، أماكن الغوص على اللؤلؤ.

غنّى النهام:

صلى الله عليك يا رسول الله يالله

يالله يا كريم يالله

يا رحمن يا رحيم يالله

مسافرين في أمان الله يالله

وبعد ستين ميلا وعند منتصف الليل وصل المحمل إلى الهَير، رُفعت المجاذيف إلى سطح السفينة، وطُوِيَ الشراع، فلمّا تلاشت حركة المحمل تماماً ألقيت المرساة في البحر، وهجع السُّيوب والغَاصة جوار الصَارية متلاصقين بعد أن فرشوا لهم سطح المحمل. وخدم السفينة من رَّضافة وتَّبابة بعدهما.

كانت وجبة العشاء لذيذة.

هذه المرّة الأولى التي يدخل فيها إبراهيم الغوص الكبير، لم ينم، ظلّ ينظر في النجوم وفي البحر ويرى المحامل الأخرى القريبة حتى مطلع الفجر، نهض قبل البحارة وقبل صيحات الجعدي فيهم. أوقدت النار في المجمرة القديمة، مربعة الشكل، بطنها من التنك، وفيها دلال القهوة النحاسية السوداء، مصبّ كلّ واحدة منها كمنقار صقر. وعلى أحد ألواحها الأربعة عُلقت نَارْجِيلة واحدة. تجمع البحارة حول المجمرة يأكلون التمر ويشربون القهوة التي فاحت رائحتها على سطح المحمل، كلهم يشربون من فنجان واحد. هذا هو طعام الإفطار ولا شيء غيره حتى غروب الشمس، فلمّا أوشكوا على الانتهاء، صاح فيهم النوخذة:

- اطلبوا الله.

فصاحوا جيمعهم:

- **يالله ... يالله...**

زال التجهّم من وجوههم، بدأ الرَّضافة بدحرجة أثقال الرصاص والحجارة إلى ميمنة المحمل وميسرته قريباً من حافتيه.

وضع السوَّابة المجاديف في مواضعها بشكل مائل، جوار كلّ مجداف وقف سِيبٌ قويّ الجسم، يختاره الغواص من أهله، أوقريباً منه أو صديقه.

هذا هو النزول الأوّل لإبراهيم بن عيسى إلى أعماق البحر في الغوص الكبير. قال له النوخذة:

- **خَلْ بالك.**

فابتسم له بثقة المتمكّن.

وضع الفطام في أنفه وتأكّد من ثباته، رفع رجله وثبّت فيها الثقل وغاص في الماء، تخلى عن الثقل فسحبه السيب إلى السطح بينما ظلّ إبراهيم يمشي على يديه ورجلاه مرفوعتان، هكذا منكساً يَطردُ في أعماق البحر، يجمع المحار في سلة.

تأخر إبراهيم عن موعد نتر الحبل المعتاد، خرج الغاصة للتو في تعاقب ابتداءً من الغوّاص الذي في

مؤخرة السفينة إلا هو! أبلغ السيب النوخذة فأمر بسحبه بسرعة لكن حبل سحب الغواص مرتخ لا شيء فيه غير السلة الممتلئة بالمحار، بعد ثوان خرج إبراهيم لوحده بين إغماء ويقظة، عيناه مغمضتان والماء وسادة لرأسه، ترك غواصان مواقعهما تحت المجاذيف وسبحا جهته، سحباه حتى صار تحت المجاذيف والدم ينزف من أنفه، أعطوه ليمونة يمصّها وهو في الماء فعادت له حيويته، قال سيب بعد أن انبطح على المجاديف وهو ممسك به:

- علينا أن نرفعه للمحمل حتى يستريح.

فردّ النوخذة:

- هذا غواص جديد وصغير وقويّ وليس مريضاً... اسمع يا إبراهيم، لا تتخلى عن الحبل مهما حدث.

هذا هو الدرس الأوّل لإبراهيم بن عيسى: البشر أصغر الكائنات في البحر!

بقي في الماء يستريح بعدها ظلّ يغوص ويعلو مرّات حتى قال عنه غواص قديم: رأيت ولد عيسى يطرد تحت الماء مثل سمكة، مغامر، فيه دم أبيه.

انتهى اليوم الأوّل، والشمس أوشكت تغيب. جلس إبراهيم في صدر السفينة ينظر في اللحظات الأخيرة للغروب ويتمتم: لا أبي حيّ فنرجوه ونترقبه ولا هو غائب فننعاه. لو يعرف ماذا فعلت اليوم؟!

في صباح اليوم الثاني جلس البحارة متقابلين يفلقون المحار.

لاحظ البحارة أن المحار في هذا الهير قليل جداً. لاحظوا ذلك قبل النوخذة الذي سألهم:

- **شنهي الأرض؟**

فرد عليه الغواصون:

- **حِداب.**

حينها أعطى النوخذة أوامره بالتحرك والانتقال إلى هير آخر. سحب الجَنَّان المرساة وقال إنّها عالقة في صخور وفشوت البحر ولا بدّ من تخليصها، تقدّم إبراهيم دون أن يستأذن النوخذة وقفز إلى البحر ممسكا بحبل المرساة، مستعينا به للوصول إليها، خلّص المرساة وظهر نصفه فجأة على السطح، وصاح بالجنّان:

- اسحب المرساة.

منذ ذلك اليوم نُعت إبراهيم براعي الشَيرة، وصار

يدعى لهذا العمل سنوات كثيرة حتى قال غوّاص:

- لو جعل النوخذة أجرتي ثلاثة أضعاف، ما فعلت ما يفعله إبراهيم بن عيسى.

كلّما غاص إبراهيم رأى والده يحييه؛ لذا عشق الغوص وفاق الغواصين كلّهم فيه وفي عدد مرات الغوص في اليوم الواحد، وفي المدّة التي يقضيها في حبس نفَسه في أعماق البحر، كلّما انتهى اليوم وصعد الغواصون على ظهر السفينة سألوه: هل أنت مرهق؟ فيضحك! صار حديث النواخذة، كلّ واحد منهم يريده في طاقمه، بعضهم أغراه بقرض مرتفع، لكن إبراهيم فطن لحيلتهم مبكراً: كلّما زادت مهارة الغواص زاد النواخذة القرض المعطى له؛ ليبقى تحت رحمة الدَين فلا يغادر طاقمهم مَدين، يستمر الدَين وترتفع فوائده، ويُورّث للأبناء. فهم إبراهيم كلّ ذلك وحذر الغواصين المهرة منه.

يتحاشى الغواصون والبحارة المزاح بالأيدي مع إبراهيم منذ أن أمسك بكفّ بحّار قوي فظلّ يصرخ ولم يستطع تخليصها من يده إلاّ بعد أن استعطفه.

لإبراهيم أنفٌ كسارية سفينة، فيه أثر واضح لفطام الغوص، لحية متصلة بالشارب يأخذ منهما عصر

كلّ يوم خميس، عينان واسعتان، لا يحتاج أن يفعل ما يفعله الغواصون الكبار: أن يضغط عليهما ليرى، ولا أن يضغط عليهما مغمضتين بالسبابة والإبهام كلمّا خرج من قاع البحر؛ إشارة لموضع ألم ضغط الماء، لا يحتاج إبراهيم لذلك، حاجبان غليظان ينحنيان قليلاً قبل نهايتهما، ظلّا أسودين حتى حين، في جبهته ثلاثة أسارير متصلة لا انقطاع في أحدها بعرض الجبهة كلّها، بشرة سمراء مشدودة حتى أيامه الأخيرة، وحين يسير في الطريق القصير من البحر إلى بيته يسيل الماء من تحت ذيل إزاره على قدميه فتلمعان.

يمشي وحده حافي القدمين بإزار هندي قديم وقميص قطني قصير الأكمام، وقحفية مثقّبة خفيفة بيضاء. وحين يكون البحر هادئاً يصطحب ولديه الصغيرين: عيسى وخليل، يدربهما على البحر دون أن يقول كلمة واحدة، يمشي معهما بجوار سور بستان صغير يحمل جراباً فيه صيد اليوم، وخطرةً، ساقاً صلبة، طويلة من البامبو يدفع بها قاربه الصغير نحو البحر، يحمل ولديه إليه، فإذا بلغ الماءُ ركبتيه وضع رجله اليمنى فيه ودخل في بطنه، يجلس في مؤخرة البلم، يركز الخَطرة في قاع البحر ويقبض بيده اليسرى

أعلى نقطة تصل إليها في الخطرة ويدفع مائلا بالبلم نحو مواقع أقفاص السمك التي يصنعها بنفسه، يعرف مواضعها قفصاً قفصاً على خارطة الماء في عينيه ودليل القلب، يرفعها واحداً واحداً ويفرغ ما فيها من سمكات في جراب من خوص سعف النخيل، يفرح الولدان كثيراً ويسألانه عن كلّ شيء، فإذا انتهى سحب البلم إلى الشاطئ وقلبه على وجهه إشارة للمارين هنا:

هذا البَلم ليس مُشاع الاستخدام.

يمرّ صبية لا يجيدون المرح إلا في البحر، يعدلون البلم ويدفعونه بأجسادهم الصغيرة نحو البحر. يلوم كلّ واحد منهم الآخر أنّه لا يدفع بكلّ قوته، يتعثر الدفع فيزيلون التراب المتكوّم بفعل الدفع أمام صدر البلم فيتحرك بيسر، فإذا صار في الماء قفزوا فيه بخفّة جنّ على غير نظام وجالوا البحر مجدفين بأيديهم، وما يجدونه من ألواح صغيرة على تراب الشاطئ. كان إبراهيم يعرفهم ويعرف آباءهم، يراهم في الحيّ لكنّه لا يغضب، لا يؤذي واحداً منهم، لا يبتسم لهم، لا يدخر لهم إلاّ الحبّ. فإذا غابت الشمس أو حان موعد طعام في البيت، أعادوا البلم إلى مكانه ضاحكين، مستمتعين، متعبين، شاكرين إبراهيم لكنّهم لا يقولون ذلك له.

وقبل سلوم الشمس بقليل، وعند إحدى التكايا التي يجتمع فيها ثلة من رجال القرية يأتي إبراهيم على ذكر صبية البحر، وأنّه لا يفعل لهم شيئاً لأنّ ذلك في خاطرهم، وأنّهم مثل أولاده. يقاطعه قلاّف:

- رأيت قاربك وحده مرّة يَلوف في البحر بلا صبية.

- إي، في خاطره ما في خاطري، يعتري الواحد الضيق فينحلّ حباله من مرساته، وربّما يتعب الحبل فينقطع، وينطلق في البحر وحده، يلوف، تأخذه حركة الماء ودورانه وأثر القمر فيه، ينعتق حراً بلا راعٍ ولا بحار يحكمه، ولا هدى ولا جهة معلومة ولا قصدٍ، مثل أوّل إنسان رأى البحر ولم يعرف ماذا يفعل فيه. ليس فعلا متعمداً، ولا علاقة للصبية بذلك، لكنّه وقت معلوم لا يعرف أحد موعده، والوقاتون كذّابون. وربّما سَمَّر في المياه العميقة، وتكون إعادته أمراً متعباً؛ فيترك لمصيره.

- كم من شخص يلوف ويسمّر، يسير ويهذي في القرية ليس الأمام أمامه ولا الوراء وراءه، منقطعاً، مكتفيا بالنظر، ولم يكن ذلك من سيرته. قال الرجل.

- بني آدم غير حالات؟!

مرض إبراهيم مرّة واحدة حتى قِيل إنّه يموت، أحضروا له الطبيب، أمسك بيديه فنفضه ورماه. طلب الطبيب تقييد يديه إلى قوائم السرير حتى يتمكّن من فحصه وعلاجه، فأحاط به ولداه وأقاربه وقيدوه، فلمّا انتهى الطبيب قال:

- إذا كان هذا مريضكم فلا تنادوني في المرّة القادمة، فصاحبكم تجمّع عليه التعب، صاحبكم ليس مريضاً!

عندما عاد إبراهيم من رحلته الأولى وقف يحدّث أمّه بما يفعل في أعماق البحر، يرى الغواصين من على مسافة، ويتحدث إليهم غَمغمةً فتبتسم له، وأنّه ذات صباح فلق محارة عن لؤلؤة وصفها بالحليب الرائب، مستديرة خالية من العيوب مثل عيون السمك، تعرف أمّه ما في خاطره وتمسح على خده بحُنوٍّ الأم.

يحاول إبراهيم التخفيف من وحدة أمّه الطويلة:

فقدان الزوج في أوّل الحياة وانتظاره في باقيها.

لم تفلح كلّ طقوس إعادة البحّار إذا تأخّر عن أهله في إعادة عيسى، فدعت النساء إلى بيتها فلبين دعوتها وغصّ البيت بعد العشاء بهنّ.

جلسن على الفُرش والحصر متقاربات رافعات

أيديهن نحو السماء فانحسرت العبايات السُود عن سواعدهن. وبينما كان دعاء ردّ الغائب يُرفع من شغاف القلب، كان الطفل إبراهيم يجري فرحاً بين النساء، لفرط خفته يكاد يقفز على صدورهن فلا يشعرن به إلاّ كوخز جريان الحليب ساعة الرضاعة.
كان الدعاء من بكاء:

«يا الله يا الله يا الله يا راد يوسف على يعقوب من بعد الفراق يا كاشف ضرّ أيوب، يا غافر ذنب داود، يا رافع عيسى بن مريم من أيدي اليهود، يا مجيب نداء يونس في الظلمات، يا مصطفي موسى بالكلمات، يا من غفر لآدم خطيئته، ورفع إدريس برحمته، يا من نجا نوحاً من الغرق نجّ عيسى بن علي وردّه إلينا سالما غانما، وأفرح به قلب أم إبراهيم، يا من أعطى الخضر الحياة، ورد ليوشع نور الشمس بعد غروبها، يا من ربط على قلب أم موسى اربط على قلب أم إبراهيم، يا رحمن يا رحيم، يا رحمن يا رحيم، يا ذا الجلال والإكرام».

كان المكان خلية نحل يضجّ بالدعاء .

بكتْ أم إبراهيم وكأنّ عيسى هاجر للتّوّ، وكأنّ غياب الأحباب لا زمن فيه.

لم يرها أحد تبكي بهذا التفجّع من قبل، لكن طقس الهجرة أكبر من أي طقس ومن أي دعاء، هاجر وأخذ معه المكان والزمان ورائحة البحر العتيقة في جسده، ورائحة البستان، كلّما دخل عليها وجدت يديه ممتلئتين بالبحر: الصيد الوفير، والبستان: باقة من المشموم والورد المحمدي الندي، لا تقول له شيئاً وتكتفي بابتسامةٍ لرجل يزرع الأرض ويحرثُ البحر.

الحبّ الغَميق لا يُقال.

امرأة تملأ فراغ غياب زوجها بالحبّ والرجاء، وطلّة إبراهيم، كي لا تنال منها الوحدة. والذي لا حيلة فيه: اختفاء صورة الخوف في وجهها، وأنّ كلّ طرق على باب البيت هو: عيسى.

تقسيمُ السماء والأسماء

عاد عيسى بن غانم ولم تعد معه الأسماء!

عاد محصوراً في نصف اتصال ونصف انفصال، غامضا له حساسية الخائف، لا يقوى على العودة إلى مكانه، ولا لشيء منه، بيته الطريق، متقلّبا، لا شيء من تصرفاته يمكن أن تُجمع وتُسمّى حياة، يحكي قصصاً في أيامه الأولى بلا تواريخ، تصلح لإعادة روايتها في كلّ مرّة لأيّ شخص، يبذل جهداً كبيراً كي يصارع فكرة مزعجة:

إنّه أصغر شيء في القرية،

وأنّ الابتهاج الأوّل لعودته وصفٌ عابرٌ لغريب!

أسماء الأشخاص والأماكن والحاجات أمامه لكنّها لا تأتي، لا يريد أن يسأله أحدٌ عن شيء، الفلاح الذي كان يسبق العصافير في استدارة رأسه صار لا يلتفت، يشبه إنساناً أُكلتْ عاطفته من وجهها.

مرّ برجلين مُسنين يجلسان على تكية في زاوية بيت جوار البحر، يلبسان ثوبين أبيضين فحيّاهما برفع يده لا بتحيّة السلام، فلّما تجاوزهما قال أحدهما:

- هذا عيسى؟!

- نعم هذا ما بقي من عيسى!

- مو قالوا إنه راح تحت للبلدة المأهولة؟!

- لا...

- إذن وين راح؟

- راح الرايح. يضحكان.

- تنقضي.

- إي... تنقضي.

انفتحت سيرة الذين عادوا إلى القرية وغابوا.

صار الرجلان يسردان الأسماء والأنساب، أسماء الذين هاجروا ولم يعودوا، عوائل خرجت صغيرة وعادت كبيرة، وعوائل هاجر أفرادها تباعاً فرداً فرداً كي لا تلفت أنظار فداوية الشيخ. وكان أهل القرية يستريحون عندما تلتقي عائلة بأكملها في المهجر، ويظنون أنّ الأم أو الجدّة التي بقيت في القرية استراحت من وجع غياب أولادها بلقائهم جميعا في

المهجر واطمأنت، ويفرحون بعودة العوائل الصغيرة التي صارت كبيرة، ينظرون إلى أولادهم الذين ولدوا في المهجر بفرح، يتحدثون عن تغيّر في ألوان بشرتهم أو شعر رؤوسهم، لكن أحداً لم يلتفت إلى أنّ الذين ولدوا في المهجر ليس فيهم حنين لأرض آبائهم، إنّهم لا يعرفونها ولا يعرفونهم، مشغولون بتلك الأرض التي نُزعوا منها، مقلِقون لآبائهم بشكل مستمر، غير قادرين على مدح المكان وتبجيله كما يفعل الآباء العائدون، منعزلون، نادمون على ما فقدوه هناك، يحسدون الذين يعيشون في البلد الذي ولدوا فيه مع عائلاتهم، وصار الناس يتناقلون كلاماً لشاب في والده، الذي عاد بعائلته التي ولدت كلّها في المنفى: شتّتنا أبي في بلاده.

مرّ المسنان على البيوت التي هجرها أهلُها ولما عادوا بعد سنين طوال وجدوها تحت يد عوائل أخرى، قد تغيّرت أشكالها أو استجدّ بناؤها على الأرض ذاتها. استذكر المسنان نساء القرية اللاتي تزوجن في المهجر من رجال تلك البلدان واستقرّ مقامهن هناك: أم السادة، نرجس بنت حسن، التي هاجرت مع أبيها وأمها وإخوتها صغيرة إلى البصرة، ولما بلغت تزوجها

شاب من آل عبد الصمد، عاد أبوها بالعائلة وظلّت هناك حتى توفيت، وصار اثنان من أولادها يزوران أخوالهم مرّة كلّ عامين أو ثلاثة، يحملان ذاكرة أمهما، ويحملان الكعك البصري، ولم ينته حديث المسنَين إلاّ عندما قال أحدهما:

- **تنقضي، وتدخل الدنيا في الدنيا.**

منذ أن هاجر عيسى بن غانم ما استدلّ أحدٌ على مكانه.

هو واحد من رجال القرية الذين إذا جاءت سيرتهم قالوا: «راح»، ولا شيء بعدها غير الصمت، مغامرة واحدة قام بها أحد أقرباء ابن غانم بعد عشرين سنة من خروجه، استأجر سفينة وقصد جزيرة قيس[1]. شيء ما في داخله جعله يقصد هذه الجزيرة، وأنّ عيسى بن غانم فيها، قصد شيخ الجزيرة الذي يعرف الأسماء كلّها فأخبره أنّ أحدا بهذا الاسم لم يصل إلى هذه الجزيرة، ما كان يحتاج أن يسأل غير الشيخ. غادر الجزيرة وقصد عُمان ثمّ اليمن وبعض الجزر التابعة لهما فلم يستدلّ عليه.

1-جزيرة تابعة لمدينة لنجة تقع في شمال غرب الخليج.

لم يقل عيسى كلمةً واحدة خلال رحلة عودته، لم يأكل لقمة واحدة، هذا هو منذ أن خرج من بلاده، لا يشعر بالجوع، يأكل نفسه، يأكل حتى لا ينسى رغبة ما نامت فيه قطّ: العودة. تصنّم حتى صار قطعة من سفينة مستقرّها عبور دائم، لم يجلس، ظلّ واقفاً عند مقدمة السفينة شاخصاً ببصره باتجاه الأفق البعيد. ولأنّ حركة السفينة بطيئة فقد منحت القلق عجلةً فيه، وكانت علامة اقترابه من بحر بلاده تغيّر المناخ: رطوبة مفاجئة وعرق لا يتوقف، ورائحة البحر لا تشبهها رائحة بحر آخر، رائحة يشمّها في نفسه في كلّ حال، داخل البحر وخارجه، يبدو له أنّه يعرف مسارات البحر ومواضعه وكثيراً من أسماء الهيرات ولا يعرفها. تأتي الأسماء في رأسه ولا تأتي، وفيما كانت السفينة تشقّ البحر الهادئ جداً بشراعها الأبيض، كان عيسى يختبر ذلك مراراً في مواقف كثيرة تَعرض عليه المواقع والأشياء بلا أسماء، هذه محنته الأولى الجديدة. لقد أفرغت هجرتُه ذاكرتَه تباعاً:

الأسماء ثمّ الأحداث وأخيراً حسّه فيما مرّت به حياته في القرية، بقيت له الوجوه التي مرّ بها ومرّت به لكن بلا أسماء.

الذاكرة البصرية لا ينالها العطب.

لكن ذاكرة البيت وثلاث ذاكرات أخرى أصابها من العطب الكثير: الفلاح، الغواص على اللؤلؤ منذ بلوغه، والبحّار العنيد. في كلّ واحدة منها سيرة فيها أسماء، قصص، حكايات، أحداث، أمراض، ولادات، خرافات، البلوغ ونزيف الدم الأوّل في الغوص على اللؤلؤ، قطرات الماء المالح على الجسد الأسمر، ضغط الماء على الأذنين في أعماق البحر، الغياب الأوّل عن بيت أبيه، المرأة الأولى، الحديث الأوّل مع امرأة، فالرجال في هذه القرية يبلغون في الغوص على اللؤلؤ أو في حضن لؤلؤة أخرى:

الزوجة، وتاريخ اللمس لرجال القرية يبدأ بالزواج.

سيرة الفلاح الذي يغرس ركبتيه في تربة البستان، العودة إلى البيت بعد غروب الشمس بالورد المحمدي والمشموم والتعب المستطيل وكثير من الرضا، وسيرة البحار الذي لا يقبل أن يمدّ الفداوية يد الشيخ في حظور صيد السمك، خروجه عند سلوم الشمس. الذاكرة الواسعة لا تكفي، ولا النقاء يكفي حين تُصاب أساسيات ذاكرة سيرة الشخص بعطب بالغ.

لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث لحظة الخروج المخيف من القرية، عند سْلوم الشمس.

حين اقترب عيسى من ساحل مدينة لِنجة، رأى قباباً كثيرة على خطّ امتداد الشاطئ، خلفها تطلّ رؤوس النخيل الباسقات والبادكيرات، أبراج تهوية البيوت. كلمّا اقترب كبرت القباب وعلت البادكيرات. وصل إلى الميناء، حوض واسع لكلّ أنواع السفن والقوارب يسمونه البندر، له رصيف ممتدّ، ينحني في نهايته إلى داخل البحر، يرتفع جداره العريض جداً عن الماء مسافة أربعة أقدام، بُنيت على امتداده غرف ومخازن للأخشاب، والملح، والتمور، والحُصر، ينفتح الرصيف وينكشف بعد كلّ مسافة على مساحات داكنة لرسو السفن، رجال سمر معمّمون، أفارقة، عمانيون، عجم وعرب، حفاة، متحزمون بالحبال والصبر، هذه علاماتهم، يتولّون شدّ السفن إلى الرصيف وتحميل ما فيها إلى المخازن أو شحنها بالأخشاب وغيرها. رصيف يضجّ بالحركة والحيوية واللغات والنداءات وبأصوات الظهور المنحنية، تنوء بثقل الأحمال وطلب الرزق، وبوجوه القادمين من الغرباء. هذا الحوض سرّة المدينة.

بقي عيسى في السوق التي لا تبعد عن الرصيف سوى أمتار، سوق بلا جدران، تنسدل من جوانب سقفه جلود وأسمال تغطي نصفه الأعلى فتمنع دخول نصف الشمس إليه، تُباع البضائع فيه بالجملة قبل شحنها، يكثر في وسطه والجانب القريب من البحر العتّالون، وينام المتعبون على أرضه أيضاً، وربّما التقى المعارف من المهاجرين صدفة. هنا نام عيسى متوسداً كيس ثيابه، نام كثيراً ولم يصحُ إلّا على أصوات الباعة والعتّالين الحفاة قبل شروق الشمس. ظنّه أحدهم من العتّالين فناداه مستعجلا لشحن أخشاب إلى سفينة ترسو عند الرصيف، كانت هذه أوّل وظيفة له في لِنجة. صار السوق بيته الأوّل، بقي على اتصال مع البحر ولم يقوَ على تعدّي الشاطئ إلى داخل المدينة. وكان كلّما مشى على رمل الشاطئ وابتعد قليلاً ينظر إلى البندر ومخازنه كي لا يغيب عن عينيه، وفي العودة لم يحوّل عينيه عن البندر إلاّ عندما رأى طفلين يساعدهما رجل في تسيير سفينة خشبية صغيرة، لها شراع أبيض لا تخرم حركتها في البحر عن السفن الكبيرة، مرّ بقوارب خشبية كثيرة على رمل الشاطئ، تتجه مقدمتها نحو البحر.

استقرّ في عشّة من سعف النخيل في أطراف أحد بساتين النخيل، جوار إحدى القباب الكبيرة التي تُبنى على عيون الماء وهي كثيرة في المدينة، تنوخ عند أبوابها الحجرية ذات الأقواس المتقنة إبل السقّائين، وتجتمع عندها نسوة بأردية سود، يحملن الماء في قرب من الجلد، يرى ذلك من خلال فرجات سعف جدران العشّة الصغيرة التي دله عليها حمّال قديم، كان يسخط على النساء، ويسخط على ضحكاتهن المتعبات، واستقرارهن، اعتاد عيسى على هذا المشهد، وسخط يوميّ عليه وعليهن، لكنّه لم يعتد على العزلة. ففي الشهر الثالث من هجرته فقد مزاجه ثمّ حيويته، وكادت العزلة تقتله، محنة لا يشاركه فيها أحد، ولا يحمل معه ولا يحميه، هو وحده يفعل كلّ ذلك، وأمره إلى نفسه.

هذا هو وجه المنفى: أنت وحدك، وما يحدث لك خاص جداً، ولا تعرف ماذا تريد.

كان يستعين على اكتئابه ويستعيد حيويته المؤقتة بذاكرة تُعينه على العيش في ماضيه، يسعفه موج البحر، يلتذّ بالذي مضى، وفجأة يجد نفسه يعيش مع أشياء كثيرة من حوله تذكره أنّه ليس في مكانه، حياة

متقطّعة بالغياب والحضور، يلمح في كلّ شيء أمامه قريته التي هاجر منها ظنّا منه أنّه سوف يتخلّص من الخوف المفاجئ وأنّه سوف يستريح. عرف أنّ الخشب يُشحن في البندر عادةً إلى موانئ الخليج لكنّه لا يعرف أيّا منها تتجه إلى بلده، العتّالون لا يسألون الربابنة عن وجهات سفنهم، العتّالون الحفاة من المهاجرين والمنفيين لا يسألون. العتّالون يشحنون السفن بالسفر، لكنّهم لا يسافرون.

وحين عرف تذكر ما ينتظره عند الساحل، يد الشيخ: فداويته.

يرى عيسى القططَ تُنافسه في المَشي بين رجليه على اللوح العريض الممدود جسراً مائلاً بين الرصيف والسفن وتنافس العَتّالين. يرحبّ البحارة بها، يقدّرونها ولا يسمحون لأحدٍ أن يؤذيها؛ لتقضي على الفئران في جوف السفينة، وأماكن تخزين المواد الغذائية. تعرف القطط ذلك، وتعرف مهمتها أيضاً، وما إن تقترب سفينة حتى تتجمّع جالسةً عند الرصيف، وربّما غادرت السفينة والقطط فيها، ترافق البحارة في رحلتهم. يأخذ نفساً عميقاً ويحسد القطط على يسر الحياة عندها والترحال وأنّ المكان لديها مهمّة فطرية.

يفضلّ عيسى حمل البضائع من الرصيف إلى مخازنها، ومنها إلى عربات نقل تجرّها حمير، يفضّل كلّ ذلك على أن ينقلها إلى السفن، كلّما مشى على جسر اللوح انتابه ما يشبه الرجفة، ورغبة صاخبة في أن يسقط في البحر وينتهي أمره؛ لذا لم يرَ ربابنةُ السفن ولا العتّالون أسرع منه مشياً على جسر اللوح، كان مشيُهُ هرولةً، يتحاشى العتّالون الكلام معه أوالصياح به في هذه اللحظات، وما بعدها بقليل حين يجلس مع خيالاته.

مرّت بعيسى سنوات من التعاسة، صارت جزءاً من حياته يعيش معها وبها، وكاد يستمر فيها لولا مهاجر قديم جداً انتهى مفهوم البيت من داخله، التقيا كثيراً عند الشاطئ وربّما في المقهى القريب من سوق البندر واطمأنّ إليه، كلّما سأله عيسى عن اسمه قال:

- وماذا تفعل باسم لا يستقرُّ صاحبه به؟!

- وكيف أناديك؟

- بالإشارة!

- وكيف أتذكرك؟

- بصورتي! الذاكرة ليست أسماء!

فلمّا تمكّن الرفض من عيسى لما آلت إليه حياته في

لِنجة، وصار على وشك الانهيار، قال له:

- علامة الرضا عن المكان ألّا تكون رجلك ثقيلة على أرضه؛ لذا عليك أن تفعل ما فعلته أنا، أنظّف المكان وذاكرتي، وأبدأ حياة جديدة، وأنّ النّاس كلّهم مهاجرون أو منفيون بشكل ما. جئتَ، رجعتَ، خرجتَ، عدتَ، أسرعت، أبطأت، التفتَ، فهمت، سرحت، مشيت، ترددت، عدتَ مرة أخرى، خفت، قلقت، حزنت، سعدت، حزنت أكثر، هو كلّه فعلك أنت وحدك وليس الدنيا. أنا أعرف أنّك الآن لا تعرف ماذا تريد، حتى لو كُشف لك لن ترى. لكن عليك أن تفعل ما نفعله هنا في هذا المكان:

أن نستمر، ونحسب اليوم نقصاً في العمر إذا قُضي في مكان واحد.

وإذا صدق ظنّي أنت من النوع الذي لا يسكن حتى يتزوّج!

- لا... أنا متزوّج!

- يا عيسى، أكثر الذين هاجروا ولم تلحق بهم زوجاتهم تزوجوا مرّة أخرى، وربّما هدأوا. المكان هنا جنّة ولا جنّة بدون حور عين، المنفى بلا امرأة جحيم

لِمَنْ لا يقوى على ترويض وحدته، امرأة من هنا، ليس لديها همّ العودة إلاّ إليك.

إياك أن تتزوج امرأة منفية أو مهاجرة،

فلا يجتمع قلبان فيهما علّة واحدة:

القلب نفسُه ليس في مكانه.

امرأة من هذه الأرض نحت البحر جسدها، وصقل بَرَد السماء نهديها، وبياض طلع النخيل أسفل أذنها، كلّ شيء فيها لا يكبر مثل الورد البريّ الصغير في سفوح جبال هذه المدينة وعند مصاب المياه البكر.

امرأة تكون لك وطناً بلا وهم الأرض.

امرأة تحضنها فتستلّ منك مرارة الغياب.

امرأة حاضرة، مشرق وجهها يرافقك لا يغيب، امرأة تحضنك قبل نيتك في حضنها، وتحضنك وتحضنك وتحضنها. النساء هنا من حنّاء ورطب!

- أحضنها؟! صدق الذين قالوا: المحبّة نَحايل! لكن لا كلام في مودّة النساء، لا مغامرات عندنا، النساء للزواج! لا نلمس امرأة قبل الزواج بها! مغامرتنا الوحيدة الهجرة أو النفي!

- ادخل في نِحلتها، وتذوق عسل نَحْلِها! مَنْ لا

تحضنه النساء في منفاه يَسري إليه الموت المؤكد ويفتك به. الهجرة خُزانة المغامرات بشرط أن لا تلتفتَ للمكان الذي خرجت أو أُخرجت منه.

- حاول عتّالٌ قديم أخذي إلى داخل المدينة مرّات، وكنت أرفض وأتعلل بأنّي لست وحدي في العشّة، معي أحبّاء لا أقوى على فراق صورهم، أحبّاء يقظون، لا ترّف لهم عين.

- لستَ وحدك في العشّة؟!

- لستُ وحدي!!

يبتسم المهاجر ولا ينظر إليه

- حدثني ماذا فعلتَ لتهاجر؟!

- ليس مهمّا كثيراً ماذا فعلت!

- لماذا أسألك؟! حمل الأسرار الكبيرة فيه عذابٌ لا يُوقفهُ إلّا البوح بها... يا عيسى هنا مهاجرون كثيرون لم يفعلوا شيئاً، توهموا أنّهم مهمّون، ثمّ توهموا أنّهم فعلوا شيئاً لكنّهم لا يذكرونه ويقولون إنّ الناس تذكره! هل أنت منهم؟

- لا أظن. يقال أنّي قتلت فداوياً وجرحت آخر، يسرقان سمك حظرتنا كلّ يوم.

- فداوي؟! قتلتَ من أجل سمك؟!

- لا، قيل لنا إنّه مات، الفداوية رجال الشيخ يسرقوننا كلّ يوم، يقتلوننا، ينهبون بساتيننا وأراضينا وقواربنا ويأخذون حتى ظلّ سعف النخيل منا.

- لو صبرت سيكتفون!

- لا لا، هم من النوع الذي لا يشبع! لو كانوا كذلك لاكتفوا منذ زمن جدّي.

- أنت من النوع الثائر؟!

- لا، أنا صاحب حقّ.

- ثائر مؤقت يعني؟! أنا منفيٌّ يستلذّ بالهجرة. أنا خارج تلك التي تُسمى بلاداً منذ أكثر من ثلاثين سنة، كلّما أصغيت لما فعلت تمنيت لو أنّه لم يحدث، لو لم أكن هناك ساعة الحدث! شيء واحد يستحق أن نكون من أجله غريبين في هذه المدينة، شيء واحد فقط يستحقّ أن نهاجر من أجله أو نُنْفَى ونترك الأرض والأهل ومكان ولادتنا:

أن نضع الناس في الحياة،

وقبلهم نضع أنفسنا،

وغير ذلك لا شيء يستحقّ.

خبرني ماذا لديك في داخلك الآن غير الرغبة الأكيدة في العودة إلى بلدك؟ أن تصعد في إحدى هذه السفن وتبحر نحو أرضك؟ ستكبر ويكبر همّ العودة معك حتى يتجاوزك. هنا الآن بالذات في غير أرضك، عليك أن تفعل لا أن تنفعل.

- نحن لا نذهب إليهم،

نحن فلاحون وبحارون ندخل البساتين قبل شروق الشمس ونغادرها بعد الغروب، أوّل ما نراه النخيل وآخر ما نراه أيضاً، وما بينهما للبحر، لا وقت لدينا لشيء غير الأرض، لا نرى بيوتنا إلّا في الظلام، نعرف مواعيد زراعة الخضروات بأنوفنا لا بمجيء الشهور وتقلّب الأيام، لكلّ موعد زرع رائحة نعرفها، ولدنا في هذه الأرض على رائحة طلع النخيل، نحن لا نذهب إليهم، هم الذين يأتون. هم الذين جاؤوا إلينا، ومن قبلهم نكّل الفُرس بأجدادي، عذّبوهم عندما سنّو الضرائب. ليتني الآن هناك.

- وأنتَ من أين جئت، ثمّ منْ قال إنّك هنا؟ أنتَ كلّك هناك، لا شيء منك هنا غير جسدك، لكن أن تكون هنا، أو تكون هناك ليس هذا هو المهمّ الآن صدقني.

المهمّ الآن أن تكون لك حياة.

أقصد أن تكون حيّاً، وأن تتمكن من إطفاء ألمك. أن تزرع البستان في قلبك. ألّا تخاف من الحياة مثلما تخاف من الموت. إذا تمكنت من ذلك لن تقول: ليتني هناك. تدرّب على ذلك كلّ يوم، ستنجو، ستكون أنتَ إلى أقصى عتبة.

– لا أفهم كلّ ما تقول.

– يا عيسى، لا أُنقص من مكانتك أنت عالم بالأرض وأنا عالم بناس الأرض، عشتُ في السفن، وكلّ شيء في الموانئ يعرفني حتى الحبال المتعبة، سافرتُ كثيراً ورأيت أنّ الأرض واحدة، وأنّي ابن الأرض في أمكنتها كلّها، رأيت ألّا مكان يحصرني، رأيت إنساناً في كلّ مكان.

كلّما رأيت فهمت أنّي من كلّ مكان.

الوجوه في الموانئ لها سحنة واحدة:

مشيج الأماكن.

ستعرف ذلك وتدركه عندما تخرج من غير بلدك إلى غير بلدك. سوف تشعر أنّك تتقسّم، لكلّ مكان نصيب فيك، وأنّك ما عدت من مكان واحد، إذا

حدث ذلك لك ستفهم أنّ الهجرة نجاة الجسد وعليك أن تمنح شيئاً من روحك للمكان الجديد، أعني جزءاً جديداً من روحك، وما لم تفعل ذلك فأنت مقسوم لا شيء يقوى على جمعك، وأنّ مهجّريك يتلذذون بتعذيب القسم الأهم فيك: روحك.

– أفتقد بساتين قريتي! منذ أن جئت صرت أبحث عن رفقة تُشبه البستان في الصباحات، رفقة شجرة صبار هندي عتيقة في البستان، تعرف وجوه الفلاحين من جيل إلى جيل، أبحث عن طريق وعن معنى للذي أنا فيه.

لماذا يعذّب الإنسان أخاه الإنسان؟

من أيّ بلد أنت؟

كأنّي أعرفك منذ زمن طويل.

– أنا أيضاً أعرفك من زمن بعيد.

– في البساتين نعرف الحياة ، وفي البحر نقاوم الموت الذي يحيط بنا فلا يخلصنا منه إلا البستان، نلتقي بعظمة أبسط شيء وأصغر شيء فيه: العشب الذي ينبت على جانبي ألواح المعابر على جداول الماء، يدوس عليها فلاحون ممهورة أقدامهم بالخفّة وما علق من تراب

الأرض الرطب. فلاحون لا يغادرون بساتينهم ولا يعرفون من الكلام إلاّ ما تنجزه الأرض بعد أيام من حرثها وقلبها وتعريضها للشمس وبذرها وسقيها. لا يعرف القراءة والكتابة في البستان غيري، لكن ليس عندي قلم، لا نتكلم كثيراً، وحتى الحديث في مجلس أختي الصباحي العَجِل محصور بين ما سنفعله بعد قليل وما فعلناه أمس، لنا ذاكرة العصافير وإنجازها اليومي، نفعل ذلك كلّ يوم وننام لفرط التعب مبكرين، مرغمين، لا وقت للفلاح لغير البستان سلوته والبحر لمزاج الوحدة والانشراح، البحر شرح، لكن ما حدث كان في البحر. هذا لا يعني أنّه لا يحدث في البستان، فأبي هاجر مرغماً من البستان.

نحن بشر لا نشتكى من الألم

وإذا أصابنا لا نتحدث عنه.

من العيب الحديث عن الألم أو العجز أو التظاهر به ولو مزاحاً، البستان لحياة القلب والبحر للروح.

- تلك إذن صفتكم على أجيالكم، أعرف ما في قلبك الآن فقط، أما روحك فلا يعلم ما بها إلا أنت. لا أحد يكشف ما في روحه، أين أبوك الآن؟

- أبي؟ لا أحد يعرف أين استقرّ غير رجل يُدعى الطير، يومها استبشرنا وقالت أختي: نذهب إليه لنراه، وقالت أيضاً:

المسافة نَفَسُ محبّ.

لكن سرعان ما اختفى الطير، طار ولم يستدل أحد على أبي بعد ذلك، أتعبنا غيابه، أتعبنا أكثر ألّا نعرف أين هو؟ أتعبنا أثره في كلّ نخلة في البستان، نسمع صوته إلى قيّم العين[1] يحييه من فوق نخلة:

سلامٌ عليكم يا قيّم العين.

كنّا نعرف ونميّز مَنْ فوق النّخلة بالحركة أسفلها، وكان أبي سريعاً في عمله في النّخيل، لا يرهبه طويلها ولا يفرحه ما قصر منها، نرى السّعف والكرب والليف يتساقط سريعاً، كأنّ النّخيل تمطر بسعفها وكربها الغليظ، فلا يجرؤ الواحد منّا على الاقتراب حتّى نعرف أنّه ينزل منها. هذا هو أبي.

حين هاجر قال كثيرون في سماهوى: مادام هذا الرجل يترك القرية، يترك كلّ شيء ويهاجر فلا خير في

1- قيّم العين: رجل مختصّ في نظام ريّ البستانين المتجاورة من مصدر ماء واحد، له خبرة في العيون والمواقيت المناسبة للسقي، وحساب الأوقات وكمية الماء لكلّ بستان.

هذه البلاد ولا خير فينا.

قيل إنّه كلّما نزل في أرض وجدها غريبةً ووجد نفسه غريباً فيها.

- لم تفكّر في الذهاب إليه؟

- كثيراً، منذ أن خرجت، ليس بيني وبينه غير اللوح المائل بين السفن والرصيف، لكن يمنعني انتشار غيابه، وانتشار مرض الجدري في البصرة.

- لا تقلق على أبيك فقد رأى الحياة وغاب فيها، ولو لم يحدث ذلك لمات سريعاً أو عاد إليكم بسرعة الموت. يبدو لي أنّه ليس إنساناً عادياً، ليس مثلي ولا مثلك، خرج من محنته حيّاً، هؤلاء يصبحون كلّ شيء في المنفى، يصبحون كلّ شخص، ويعيشون حياة كلّ شخص محيط بهم أو محيطين به، يتجاوزون حتى أنفسهم. تقبّلوا الحياة في المنفى ولم يعتبروها مشكلة كما حدث لي وكما أنت فيه الآن، أمّا إذا رأى نفسه غريباً في كلّ أرض فلن يحتاج إلى أحد ولن يرغب في العودة، لا أقوى على الوصول إلى ما وصل إليه أبوك. عموماً لست المهاجر الأوّل ولا المنفي الأخير الذي أهتمّ بكشف تجربتي له حتى يتقوى بها ويخرج، فإذا لم يستطع فقد تشبّه بالموت وصار يحارب أشياء لا يراها. الحيّ يخرج.

- هل رأيت فلاحاً لا يشتاق إلى أرضه؟ هل صار أبي بلا قلب؟!

- لا، لديه قلب لكن ليس في مكانه.

اهتم بمحنتك الآن، وأبوك لن يأتي إليك. أنتَ ترى معنى الحياة في أبيك، لكنك تعيش الآن بدونه، ولست ميتاً، وهذا يؤكد أنّ المعنى كلّه فيك. يا عيسى أنت لست وحدك في البستان، بل جماعة تعمل جوارهم، لم يحدث أن جئتَ إليه وغابوا، كنتَ معزولاً فيه لكنّها عزلة مشتركة مع آخرين، لا يمكن أن تتخيّل نفسك منعزلاً منفصلاً انفصالاً كاملا كما أنتَ عليه الآن، هنا أنتَ وحدك حراً، مستقلاً عن كلّ شيء فتحدث عن وحدك. لا تفعل ما يفعله المهاجرون مهما جرى عليك، سافرت كثيراً فرأيت بعضهم يقسّمون السماء والأسماء، يتاجرون بالألم وينسبون أسماء الدم لهم، يعيشون على فقد الآخرين لأبنائهم وأحبابهم، وعذاباتهم ومرارت الأمهات، بارعون في الكلام عن المنفيين والمهاجرين، لا يُنقصهم شيءٌ إلّا الصدق، وليس حظّهم من المنفى غير البعد.

- نصائحك كثيرة وكلامك طويل، وبعضه غريب عليّ، وكلّ الذي فيّ أنّي أفتقد البستان.

-كلّما زاد اهتمامك بالمكان الذي خرجت أو أُخرجتَ منه زادت محنتك هنا، فالمحنة فيك وحدك، سوف أغادر الآن، أعتذر منك.

يهمّ المهاجر بالمشي فيوقفه عيسى بالكلام:

- تصوّر إنّي ما حدّثتُ أحداً في الأمر منذ خرجت!

-المهاجر حين يخرج لا يلتفت، يُصاب بكثير من الوهم في الدرب فتتراءى له أشياء لا صور لها إلا فيه.

لا ينام في يومه الأوّل،

لا يسكن،

لا يفهم ما يحدث له،

لا يعرف ماذا أصاب الرأس،

لا يعرف الجهات،

لا يرتاح،

وجهه ممتلئ بالبكاء، له عمل في الأساطير، يتمنى لو عنده حرز يحميه منه وممّا حوله، حرز كالذي تربطه النساء على أفخادهن؛ ليزول ما فيهن من عوق ويحملن فتسكت النساء عنهن. المهاجر في درب الخروج يُولّد الأخيلة السريعة بالأحراز، أخيلة قصيرة الحياة تولد وتموت في الحال ويظنّ أنّ وجهه على وجوه الناس

الذين غادرهم، وأنّ بهم ما به لا ينقص من ذلك شيء، ولا يخرم حالتهم حالته، وأنّهم لن ينسوه أبداً. المهاجر في يومه الأوّل حاله غير حال، يتوقّف كلّ شيء فيه إلاّ الحركة باتجاه المخرج. المنفيّ يعرفه ويفهمه ويقدر حالته منفيّ مثله، وربّما يؤذيه أيضاً.

– كلّ الذي قلته مرّ بي ولم أفهمه.

– لن تفهمه وأنت فيه، فكيف تفهمه وأنت لست فيك؟!

ينهض ويمشي خطوات بهدوء، كأنّه يحبس شيئاً ما من أن ينطلق.

–هل نلتقي غداً؟!

– إذا أحببت نعم. هنا المكان نفسه جوار البحر، فالماء ذراع طويلة للتواصل مع البعيدين.

– نعم... سوف آتي قبلك.

افترقا فشعر عيسى بضيق جديد من فتح شقّ جديد في حالته: نصف وعي ونصف غياب، يعود إلى مكان سكنه، يستلقي، يمرر حياته فيلماً طويلاً من العمل، وفي الصباح يشمّ رائحة البستان، ينهض فزعاً خشية التأخر عن لقاء الفلاحين، يحدث هذا كلّ يوم،

وفي منتصف بعض الليالي يفزّ قلقاً من نومه فيعرف أنّه موعد دخول حظرة صيد السمك، رتبته مواعيد موج البحر، مواعيد الجزر والمدّ، الفلاحون والبحارة مواقيت، داخلهم ساعة لا تخطئ دقيقة واحدة، في البستان دقّة قيّم العين، ومواسم الطلع وفي البحر حركة القمر، لا يغادره شيء: لا المكان ولا المواقيت، كلّ يوم بأوقاته لا يحيد عنها، ينجز الأشياء فيها، ولا يتكلم كثيراً عن يوم غد، ولا يفهم معنى التوقّف عن العمل، وإذا سقط فلاح مريضاً وهو أمر نادر جداً فإنّ تعبه من التوقّف عن العمل لا المرض نفسه، لا أحداث تهبط فجأة عليهم إلا الخبر ودخول الفداوية في القرية أو مرورهم غير المريح في البساتين وعبثهم بالأشجار المثمرة، وما تطاله أيديهم، كانت أيديهم طويلة.

- الناس هنا طيبون، وودودون، أماكن مفتوحة، وبيوتنا لا تشبه بيوتهم في شيء. قال عيسى بشيء من الراحة والرضا.

- جداً، وكثير منهم مهاجرون أو منفيون أو غير راضين عن بلدانهم فغادروها. يصل المهاجر، فلا يسأله أحد:

مَنْ أنت؟

ما اسمك؟

ما دينك؟

ولا من أين قدمت؟

قل لي كيف كان نومك البارحة؟

– قلق. ليل فيه اليقظة أكثر من النوم!

– سوف يستقرّ حين تستقرّ، وتقبل المكان وترضى عن وجودك فيه، أصابني كلّ ذلك ولم ينجني منه غير شقّ عالم صغير خاص بي في هذا العالم الكبير، عالم أستطيع لمسه وتفقّد نفسي فيه، هذا يكفيك، أمّا عالمك الكبير الواسع فلا معنى له الآن ولا فائدة غير إقلاقك كلّما ملت إليه، عالم صغير تكون فيه أنت عميقاً أفضل من عالم واسع تكون فيه كما هم فيه: نسخة من الآباء والأمهات. عالمهم هم لا عالمك أنتَ، هل رأيت الأطفال؟ هل رأيت عالمهم الصغير الذي يصنعونه؟ عالم من المغامرة والكشف الجديد والدهشة والتأمل أيضاً. بعد ذلك يكبرون ويُدخَلون في العالم الواسع لكنّه ليس عالمهم. يتألم المنفيّ والمهاجر لأنّه يقاوم فكرة صنع عالم جديد صغير له، نادم أنا على عالمي الماضي المتّسع الضيّق، ربّما لو كنت منفياً مبكراً لتجاوزت

ذلك الصراع ولبكرتُ في صنع عالمي الصغير، ولما خسرت كلّ هذا الوقت، ولما ندمت أو حتى تبكايت على ما حلّ بي، أو أحللته أنا بنفسي، ولتجاوزت غضبي وقسوتي على نفسي، وفي لمحة غريبة مثل حلم سريع رأيت أوّل علامات عالمي الجديد الصغير: أنّي متّ وحييت وأنّ قدميّ ثابتتان على الأرض، بعدها انتابني شعور داخلي عميق بعدم الانتماء لأي مكان، وأنّي قادر على صنع عالمي أينما كنت مثل الأطفال. المكان ليس مهمّا إذا مات قليل من الانتماء إليه.

- لن يحدث، هذا لفلاح قضى عمره في الأرض، وتمرّغ جسده بتراب البستان. نعمل حفاة ويدخل التراب بين الأصابع كي لا نفقد الصلة بالأرض تحت أقدامنا، وقد نغرس ركبنا العارية في الحقل الرطب منكبّين، ممتزجين به، ننظفه عن النباتات الضارة فإذا تأخّر أحدنا في غرس ركبتيه ننصحه بتحريكهما أو تغيير مكانهما لكي لا تنمو فيهما عروق! نؤمن بأنّ العروق في أجسادنا هي من عروق هذه النخيل والأشجار التي غرسها أجدادنا. هل تظنّ أنّ واحداً من هؤلاء يمكن أن يفقد صلته بأرضه، أو يقبل بغيرها حتى لو كانت جوار أرضه؟ ليس بين البساتين أسوار، ولا حدود

مرسومة، أصحاب الأراضي لا يعرفون ذلك، نحن الذين نعرف ذلك بدقّة لكنّنا لا نضع أسواراً، وعلى الرغم من ذلك لا يستطيع الفلاح العمل في غير بستانه إلا مرغماً، الفلاح عندنا إذا حلّ به المرض الأخير الذي يموت فيه وانقطع عن أرض بستانه يصير لونه لون تراب الأرض.

- والله... أنت شجرة أو ولدتك شجرة. أخذ نفسا عميقا.

-ربّما الثانية! نعرف الأرض باللمس والرائحة والعين ومسّ الجلد، نسمعها حين نفتح لها الماء في الجداول شِرباً شِرباً، نسمع لها صوتاً لا يميّزه إلا الفلاح والعصافير. كيف أصف لك هذا الصوت؟

هل سقيتَ عطشانَ قطّ؟

هل سمعت صوت الماء في الفم الجاف الملهوف على الماء؟

هذا هو الصوت الذي أعنيه، للشجر أصوات أيضا، الناس الذين يمسّون الأرض بكلّ جلد أجسادهم لا يعرفون العنف ولا يجيدون المواجهة، وجوههم مفتوحة على الأرض وكلامهم محصور

فيها، ليس فيهم غير السلام وكلّ واحد فيهم مشروع شجرة صبار هندي تعمّر مئات السنين، كنّا نستدّل على أماكن راحة أجدادنا بظلال أشجار الصبار الهندي، هذه سيرتنا كلّها: الأرض، في البستان لا نرى الوقت.

- في المنفى ترى الوقت ويكون كلّه لك لأوّل مرة، لا أحد ينازعك فيه، أوّل منْ يقابلك فجأة فتعرف جيداً ولأوّل مرّة أنّك بلا إضافات من أحد ولا مكانك ولا ناسك ولا تاريخك. تتخلّص من مشيج الناس وعملهم فيك، وتعود لمشيجك الطبيعي الذي ولدت عليه، رأيتُ الوقتَ يمشي جواري وربّما سبقني، ينظر إليّ ويبالغ في ذلك. الوقت في المنفى جاثوم يفتك بضعفاء القلب.

- الوقت في البستان حَبسة! أخذنا البستان فأخذونا وتمكنوا منّا. كان أبي يقول: كلّ ما بنا سببه الحَبسة!

بقيا صامتين دقائق جَدَّد كلّ واحد فيهما نفسه وأنفاسه. قال عيسى:

- هل سألتك؟

- عن؟

- منذ سنوات وأنا أشمّ رائحة الشتاء هنا كلّ صباح! كأنّ الصيف انتهى وكذا الخريف وصرنا على وشك الربيع. أشمّ رائحة الشتاء كلّ يوم!

يبتسمان على وشك ضحكة

- لا خلل في أنفك لكن للمنفيّ مزاج شتاء، يتمنى لو كان مورقا مزهراً ربيعي الحسّ والروح، يتمنى لو أن عزلته تنتهي ويخرج.

علامات الراحة والرضا بدت على وجه عيسى. ظلّا صامتين فترة، كأنّما يصغيان لصوت أمواج البحر ولجهة كلّ واحد منهما فيه. تعددت اللقاءات بينهما جوار البحر وربّما في مقهى البحارة الخشبي المفتوح على الشاطئ، وعلى ضوء القمر. مقهى فيه شاي كثير وطعام قليل لا يتغيّر، يجمع البحارة والقلافين، صنّاع السفن، والصفافير والنجارين والسقائين بين جدران من سعف النخيل وقشر نبات البامبو وظلّ النخيل، يجلسون على كراس بلا مساند، غاصت قوائمها في الرمل. قال المهاجر:

- إن كنتَ تبحث عن مهاجر أو منفيّ جديد، اقصد هذا المقهى قبل الغروب بقليل. لا تأتِ قبل ذلك. هنا يلتقي الذين لا مستقرّ لهم في بلدانهم،

تعرفهم من خفّتهم في المجيء وثقلهم في العودة وقلّة حاجياتهم، وندرة حاجتهم للآخرين واستطالة نظرتهم في الوجوه من غير كلام. أكثر الناس هنا غرباء في هذا المكان. لا أحد ينتظرهم في بيوتهم، يستميلون الصورَ إلى ذاكرتهم، لديهم طريقة فعّالة لقتل مشاعرهم: يتحدثون عنها بشكل مبالغ فيه. هنا وقبل ثلاثين عاماً التقيتُ بمهاجر قديم أخرجني من يأسي إلى ما يُشبه الحياة؛ لذا لم أمت. قال لي:

لا تسمِّ الأماكن تتخطها،

وقال لي أيضاً:

يمكنك أن تهاجر أو تصبح منفياً وأنت في وسط بلدك وبين أهلك.

سألته: كيف؟ فقال: أن لا تقوى على هجر الخوف.

وقال لي:

في تكرار الحكايات دوام الحسّ بالهزيمة،

وقال لي:

لا تعضَّ على المكان تنجُ،

وقال لي:

المنفيّ يرغب في أن يراه الناسُ ضحيةً، فإذا صارت

الرغبة عندك حبّاً عد إلى بلادك، فلا نجاة لك في خارجها.

ولمّا همّ بالرحيل اقترب مني أكثر، وضع يده على كتفي وقال:

لا تهاجر من خوف إلى خوف؛

لذا كلّما مررت بهذه المدينة لا أترك المقهى إلاّ في رحيل جديد.

- مررتُ به ولم أتجرأ على دخوله، كثرة الناس تربكني، وكثرة اللغو والكلام لا يريحني؛ لذا ألجأ للجلوس جوار البحر. هكذا كما رأيتني أوّل مرّة: وحدي.

- يمكنك أن تجلس مع الناس وتكون وحدك أيضاً، المنفيون يتقنون العزلة، تعال ندخل نحيّي عزلتهم ونشرب شايا، فالشاي هنا كلّه سلام:

سؤال عن الحال يفتح الكلام،

ضرب الهمّ بالهمّ يرتاح البال.

تعود في اليوم التالي تُلقي ثقلك تتجدد، هؤلاء يحملون قرى ومدناً كاملة على أكتافهم بصقتهم في حدث ما، لم يكن في الحسبان، بعضهم مرّ بسجون،

بعضهم مرّ الخوف به، آخرون سحبتهم بلدانهم من أرجلهم إلى البحر وطين الأرض في وجوههم، لكنّ أجسادهم نجت على نحو ما، وبقي أن تنجو أرواحهم، هذا المكان لنجاة الروح، يسهم الشاي في ذلك؛ لأنّه محفز للكلام، يا عيسى الروح من كلام.

جلسا إلى طاولة صغيرة غير ثابتة في زاوية في الجزء الخارجي غير المسقوف بعيداً قليلا عن ضجّة الكلام، وضجّة الصمت المفاجئ في الداخل، صمت لا تسمع فيه غير النفس العميق مثل زفير حوت تأخر في الخروج إلى سطح البحر، الزفير هنا ينفجر فيشعر البطن بضغط الصدر عليه.

- لا نشرب الشاي في البستان إلا نادراً. يومنا تمرات وقهوة، ولبن في الصيف، الراحة في البستان في العجلة. الأرض الحيّة لا يناسبها الفلاح الميت، لا وقت في البستان، تدخل الهمّة في الهمّة، والأرض في الأرض، والتعب في التعب، وحبّة العرق في حبّة الرزق. في البستان لا شيء ينتظر، لا وقت للشاي، لا وقت للكلام. قال عيسى.

- حبّة عرق... حبّة رزق. في المنفيّ شوق متعب يتحايل عليه بالكلام، الشاي يأخذ الكلام إلى الكلام،

الماء والنار لا يتوافقان عادةً إلا في حال الشاي الساخن للباحثين عن السلام والكلام، المنفى لا يتوافق إلا مع الكلام، الصمت في المنفى مقبرة تلاحق المنفيّ، صمتُ المنفيين ليس نقيّاً، الشاي خزائن الأسرار، فعلى تقديرك له يهبك الكلام، المنفيُّ الشغوف بالحياة مفعم بالشاي، أعني الكلام، الشاي لدى المنفيّ فنّ إفشاء الأسرار والسخرية من النفس، إذا سمعت ضحكة في هذا المقهى، ضحكةً عالية فتأكّد أنّ أوّلها شاي، بعدها عليك أن تبحث عن السرّ في تلك السخرية، ولن تجدها دون المرور الهادئ بسحر الشاي، فم المنفيّ حَوض مليء بالكلام، بالقصص، بطريق السفر، بدرب النفي القلق، باللفتات الأخيرة لما تبقّى، لما يمكن مشاهدته من بلدانهم، بلقاءات الغرباء، باللوم المتكرر في اليوم الواحد، بوجع الظهر من غير بذل جهد، بالوصف الذي يتغيّر كلّ يوم، كلّ لحظة، بالرغبات الصغيرة في بيت بارد، بالوجوه التي استبدّ بصورها الخيال، بالدروب التي لا ظهر لها، كلّ ذلك يدفئه الشاي، يصنع المزاج للكلام. يا عيسى الكلام حديقةُ المنفيين.

- أنتَ شايي إذن؟

- هو معنى: أنت منفيّ.

يضحكان فتهتز طاولة الشاي الصغيرة، يحاول عيسى تثبيتها فيهبط به كرسيه في الرمل وتنقطّع ضحكته.

- لا تجيد الجلوس على الكراسي؟!

- لا، لا نجلس!

- إذا جئتَ المقهى في يوم ما، اجلس إلى أيّ شخص وسوف يرحب بك ويفتح الكلام معك، لا تجلس وحدك في المقهى، فهذا المكان ليس للوحدة لكن للكلام. المقهى ليس سريراً مظلماً في النهارات، ليس عشّتك الصغيرة، المقهى كلام مفتوح على البحر وعلى هذا الفضاء، في المقهى ستعتني بك الأسئلة، أليس هذا ما يتمناه المنفيّ، أن يسأله إنسان على وشك الاهتمام به: من أيّ بلد أنت؟!

- أنتَ تجلس على حَافة الكرسيّ دائماً! مثل عصفور مضطرب في نية الطيران.

- نعم، على نيّة الرحيل، لا تفعل ذلك حين تجلس مع منفّيّ في المقهى، سيفهم ذلك سريعاً جداً وينغلق، لكن املأ الكرسي بجسدك، واملأ المكان بحضورك!

- الله يعين... سأحاول!

- سوف أرحل ولا أعرف هل سأمرّ بهذه المدينة أم لا؟ لا خطّة عندي، لا مكان أعود إليه، أمرّ بالبلدان والمدن والقرى، لكنّي لا أعود إليها، فالأماكن الجديدة التي لم أرها من قبل وحدها تهدّئ أعصابي، وتصنع مزاجي. ولكثرة ما مررت به من موانئ وأرصفة إبحار، لا يظلّ في بالي وذكراتي غير لحظة واحدة:

رفع المرساة، صوت ارتطامها بماء البحر لحظة الإنزال، تكون متعبةً من التنقل مثلي، أشعر باطمئنان أكثر في السفن وهي في مسافاتها، في اختفاء اليابسة وتساوي الجهات، في رائحة الخشب الرطب، في الإبحار لا في الميناء، هل تعرف لماذا؟ الناس فيها على ما جاءوا به وعليه في الأصل: عابرون. ما إن تتوقف السفينة وأغادر الميناء حتى ينتابني شعور بأنّ كلّ شيء ناقص من حولي! هذا الشعور لا يتوقف حتى أكون على حافة رصيف السفن! وكثيراً ما صعدت سفناً قبل إبحارها بساعات طويلة، المهم أن أتخلّص من هذا السأم. كأنّ الاستقرار في المكان نقص! وكأنّ السفر والسياحة في الأرض بحث عن الاكتمال؛ لذا لا أستقرّ في مكان وإنّما -كما قلت لك من قبل- أمرّ به فقط!

- وأهلك؟ وعائلتك؟

– علمتهم على افتقادي وصار الأصل عندهم غيابي وعلمت نفسي على وحدتي، أكره أن ينتظرني أحدٌ أو يتعذّب أو يحزن لغيابي، وفي كلّ الأحوال. الكلام كثير والمنفى كبير، ولا يحسب الزمن فيه بالساعات، اعتنِ بنفسك، إذا لم تجد رغبتك في هذا المكان تجاهله، غيّره، فالكمال في التجاهل، والأماكن أكثر من الرغبات.

–أبوك وأمّك؟!

– هي حياتي واحدة لن تتكرر، ولا أرغب في أن أقضيها مع أبي وأمّي في مكان واحد! لستُ آدم والعائلة لا تملك أولادها.

– علمتهم على افتقادك؟! وأنت، ألا تفتقدهم؟ بلادك؟ حياتك هناك؟ ذكرياتك؟ ها أنت تتحدث عنها الآن!!

– البقاءُ في العاطفة آفةُ المنفيّ! كلّ شيء هناك من بنات العاطفة. النفيُ أن تعزلَ الماضي، وما لم يحدث ذلك فأنتَ لستَ منفيّاً... أنتَ مهاجر، والمهاجر ليس هو المنفيّ. (يُريد النّاس أن يُعترف بهم ضحايا)

– ليس عندك وفاء لمكانك، لقريتك، لبلادك!!

– عندي وفاء لكنّه لا يكفي إلاّ لي، لنفسي، وهذا

يكفي ويكفيني!

- مَنْ يقوى على بترٍ كهذا!! لسنا عود نعناع، تقطعه من أيّ جزء، من أيّ مكان ينمو نعناعاً جديداً يانعاً بخضرته وعطره ووريقاته المنقوشة.

- يقوى عليه الذي لا يموت! النعناع يتجدد لا يموت، ما لم تتغيّر الأشياء التي أمامك فإنّ المكان ميّت وأنت ميتٌ فيه أيضاً؛ لذا لا أقوى على مكان واحد، بلاد واحدة أعرف كلّ شيء فيها. أليس في البستان مفاجآت؟!

- لا، نعرف كلّ شيء وكلّ خطوة، كما قلت لك من قبل، لكن المفاجأة الوحيدة هي النباتات الضارة، وعلينا التخلّص منها بسرعة وبجهد مضاعف. أنتَ توترني أكثر الآن!

- اعذرني، اِنسَ كلّ شيء قلتُه لك، والتفت إلى أمر هام جداً: أنّ شيئاً منك الآن صار هنا، فاستودعه أمنياتك وشيئاً من أحلامك، لا تلتفت لتوتّركَ فهو لن يتوقّف، لا تنتظر معجزة فلا أساطير في المنفى.

- لا تنتظر أحداً...

- نعم، ثمّة أمور لا توضحها أيّةُ إجابات... لا

تنتظر شيئاً... ستكون أنتَ أينما تكون، ولن تجد حياة سهلةً في مكان ما.

- ما تخاف تموت بعيدا عن بلدك؟

- الموت؟! ليس لديّ مشكلة مع الموت، لديّ مشكلة مع الحياة، أن تموت هنا أو هناك لا يهمّ فلا معنى للمكان بعد الموت... لا معنى لك، لا معنى لي، يسقط المنفى الصغير في المنفى الكبير الأبدي، لا معنى لأيّ شيء!

ما كان عيسى في القرية يتلقّى نصائح من أحد فقد جمع بين درس الأرض الأكبر: مشاهدة الحياة فيها كشفاً، ودرس البحر: لا تتحدث عن شيء لا تراه، وأنّ البحار الماهر يعرف السمكة من لون ظهرها وهي في الماء، البحّار في عيسى لا يسأل، والفلاح فيه يعرف، لكنّه في هذا المكان وفي هذه الحالة التي لا تسمح له بالنظر من أعلى، ولا تمكّنه أن يقول إن رأى، رجل النخيل النقي واللؤلؤ ذي اللون الرائب، لكنّ النقاء في المنفى لا يكفي.

عاد عيسى إلى قريته غير خائف ممّا قد يحلّ به، مطمئناً: لن يعرفه أحد، ذاب أكثر جسده، ولا شيء في وجهه بقي في مكانه، لن يطمع فيه أحد.

تأبّط كيس القماش الذي أتى به وركب سفينة تقصد موانئ بلاده، مَشى بعجلة المشتاق على لوح الجسر بين الرصيف والسفينة، زاحمته القطط، تحتكّ برجليه، وهو يهمّ نحو سطح السفينة.

وصل قريته صباحاً فقصد البستان، وكأنّ كلّ ما حدث له ليس أكثر من غفوة فلاح تعب فجلس تحت عرشة شجرة توت كثيفة، مرّ أسفلها الماء في الصباح فبقيت تربتُها رطبةً باردة.

العائدون من الهجرة لا يسألون أحداً عمّا تغيّر في المكان والأحوال، ولا يمكنهم تقدير المسافة التي قطعتها دمعة الخروج في اليوم الثالث ولا دمعة العودة في اليوم الأوّل من العين إلى التراب عند الرجلين، لم يسأل عيسى عن شيء فرائحة البحر عند الجزر ورائحة نخيل القرية لا تشبهها رائحة نخيل لِنجة ولا بحرها. نَفَسُ الكائنات والأعشاب الرطبة الميّتة، رائحة الملح اليابس في مدود الحظور وأسفل القوارب، الماء الحلو الثقيل يخرج من ثقوب قاع البحر المكشوف، حركة القوارب نحو حظور الصيد البعيدة، صيادون يرفعون الشباك بالرزق الوفير، أصوات أطفال عند الشاطئ يلاحقون سرطانات صغيرة، نسوة لهن في

البحر حاجات، كلّ ذلك جعله يرغب في التوجّه نحو البستان لإنجاز عمله الصباحي جوار إخوته!

المهاجر العائد ينسى الخسارات في اليومين الأول والثاني من عودته ويصبح الزمن طازجا لديه. هجمة المكان على الذاكرة تفعل ذلك وأنّ كلّ شيء في الذاكرة. شيء ما يجعل العائد من المنفى يشعر أنّه يعرف كلّ شيء وأنّه حاضر في خاطره؛ لذا يرفع يده، يومِىء إليه، يريد أن يسميه ثمّ يتراجع، تأتي عليه لحظات خاطفة يرى فيها الكمال في الحياة بعيني طير فيطمئن ويبتهج وتصدر عنه ابتسامة نادرة، غامضة يصعب القبض على أسبابها، مثل ابتسامة رضيع في قماطه.

لم يسأل أحداً عن شيء فالذين مرّوا جواره لم ينظروا إليه.

كان ينتظر أن يراه أحد ويتفاجأ ويندهش،

ويفرح ويقترب فيحضنه،

لكن ذلك لم يحدث.

يخشى أن يسأل؛ فأهل القرية لا يسألون.

الفداوية يسألون عن الشخص والمكان والحركة فيه، الغرباء يسألون أيضاً.

يتشابهان في التعب والبتر: المنفى والبلاد، هناك وهنا، ماذا لو عاد ليلاً؟!

اقتربت السفينة من شمال شرق القرية وبانت الصخرة قصّار تعلو سطح ماء البحر بقدمين، والنخيل المتداخلة الكثيفة، النخيلات المائلة بجذوعها والمتدلية بسعفها على رمل الساحل المشعّ، والبيوت البيضاء بين النخيل، هذه قرية سِماهوي إذن، يسبقها من البحر الباب العود، ويحيطها من الجو أعلى نقطة يصل إليها حمام القرية الحوّام فلا تراه عين مجردة فيقولون: الحَمام بَنّد، والحمامة بَنّدَت، ويكثر في الأرض النخيل المسميات بأسماء المهاجرات.

بان الباب العود فاطمأن عيسى وكاد يبكي، أُنزل الشراعُ قبل وصول السفينة إلى مدخله، رست في مكان آمن ونزل عيسى وحده إلى قارب صغير يتأبط حزمة من قماش فيها ثياب قليلة وحاجيات، نزل بعده عمال في السفينة قصدوا الأسواق للتزود بالطعام وبعض الأغراض، أما عيسى فراح يمشي على مهل، بحذر المهاجر الخائف : بيته بعيد، بلاده بعيدة، ومنفاه بعيد.

نزل بثقة مَنْ يعرف خرائط القرية، ويعرف الطريق إلى البستان أيضاً.

الخرائط تيبس في خواطر المهاجرين وذاكرتهم، فإذا عادوا إلى بلدانهم اهتزت فيهم، ونهضت في عيونهم، وظنّوا أنّهم يعرفون كلّ شيء.

- هذا هو الطريق إلى البستان، وهذا هو السياج الطويل للبساتين حتى رمال الشاطئ.

قال عيسى يحدّث نفسه ومشى حتى صار بين بساتين كثيرة، يرفع يرأسه ينظر إلى النخيل الطويلات فيُصاب بشيء من الدوار، توقّف فجأة، نظر إلى الخلف، قال:

- البستان هنا... يفترض أن يكون هنا.

عاد من جديد إلى الشاطئ، إلى المكان الذي انطلق منه، سلك طريقاً قريبا من الأوّل، تفرّع إلى ممرين أحدهما ضيّق، أوّله شجرة صبار هندي معمّرة تظلله، فابتسم:

- هذا هو الطريق.

ومضى فيه طويلاً بهمّة السالك العارف، كانت المسافات بين سياجات البساتين تصغر والطريق يضيق قليلا قليلاً، توقّف مرة أخرى، يسمع أصوات مناداة الفلاحين بعضهم بعضاً من بعيد، صوت مناجل

تشقّ كرب النخيل، محاش تقلّب الأرض، تصطدم بحصوات صغيرات، تدفقَ الماء في الجداول والمصاب، ورق يابس يتكسّر تحت أقدام عارية، بلابل وعصافير وحمام، لكلّ صوت وصرخة فلاح إشارة ومعنى.

رأى رجالا سُمرا نحيلين لا يُشبهون رجال القرية في شيء، يحملون مناجل وسلال، عرف أنّهم فلاحون لكنّه لم يعرف ولم يفهم من رطنهم ولغتهم شيئاً.

«منْ هؤلاء؟» سأل نفسه.

عاد إلى الشاطئ وجلس مكانه، كلّما ارتاح اطمأن إلى علامات بصرية وصور تبدو راسخة في ذاكرته:

إنّه يعرف الطريق إلى البستان.

ينهض مبتسماً كمنْ أمسك الطريق من آخره بعينيه.

يقصد البستان فلا يجده.

لم ييأس، يصغي إلى نفسه «الطريق من هنا... البستان من هذه الجهة»، قصده مرّات، لم يجده، يعود إلى نقطة انطلاقه يرتّب صور الخرائط في رأسه ثمّ ينطلق بروح جديدة وصور جديدة تلغي الصور السابقة فيطمئن إليها وينهض بها جهتها، كلّما كثرت صور شيءٍ غاب. الفلاحون لا يتعبون من المشي.

استقرّ جوار البحر، من أين الطريق؟ كأنّه موعدٌ مع ميت.

تعرّف عليه رجل مسنّ، وعرف قليلاً ممّا به في علامات وجهه وحركات يديه، سمع حيرته وتعاقب الوحدة والغربة عليه، فأخذه من يده إلى داخل القرية. ثمّة أشخاص يسمعون.

أذعن عيسى إليه وسلّم، لم يقلْ كلمة واحدة، لم ينظر إلى وجه الرجل، كلّما مشى خطواتٍ استدار ينظر إلى الطريق فيظهر في وجهه علامات الضائع الذي عرف فجأة أوّل الدرب إلى مقصده.

أخذه إلى بيته فتوقّف عند الباب، فتح الرجل الباب دون أن يطرقه، دفع عيسى بهدوء إلى الداخل وأغلق الباب عليه.

سمع في البيت كلاماً ثمّ هدرة أعقبتها صرخات.

خرج عيسى من القرية خائفاً، وعاد إليها بعد ثلاثين سنة خائفاً من أن يموت في بلاد غربة، رأى كيف يموت الغوّاص في موسم صيد اللؤلؤ فيُدفن في الجزر غير المأهولة، القريبة من الهيرات حتى لا يقطع محمل الغوص رحلته السنوية ويعود إلى القرية، أو ربّما

لُفّ في كفن وأسمال لا حاجة للغواصين بها، وأُنزل بأثقال محكمة الربط في قدميه إلى قاع البحر، تأكله الأسماك أو يطفو على الماء ويلعب به الموج عند شاطئ ما، قد أكل الماء وجهه. صار يرى ذلك كلّما نام ليلاً أو غفت عيناه في نهار متعب.

كره أن يكون حُمولةً زائدة، مُعطِّلة، يتمّ التخلّص منها سريعاً.

أن يموت بلا توديع، ولو بإيماءةِ عين.

عاد عيسى والموت كلُّهُ في رأسه كلِّه، فَقدَ القدرة على إيقاف التفكير في غيره.

في المنفى يتواطأ التعبُ مع الموت تواطأً متعمداً، تُصبح الكآبة طبقات تحتها القلق، من تحته الموت.

المنفيّون يمقتون الموتَ في المنفى؛ المهاجرون تُقلقهم فكرة الموت في بلد المهجر، لذا يوصون أهلهم وأصدقاءهم بإعادة أجسادهم ودفنها في أوطانهم، فلربّما سكنتْ أرواحهمُ المتعبة في أرضها.

درسُ جدّه لأبيه، له، راسخ في الحواسّ: إيّاك أن تنزعَ شجرةً كبيرةً إلى غير أرضها التي طلعت وربت واهتزّت فيها، وسقاها الله بمائه، فإنْ سَلِمت أغصانُها،

لن تسلمَ جذورُها، وإن سلما معاً، لن تسلم ظلالُها أبداً.

حاول عيسى مرّات أن يتصوّر نهايةً له فلم يستطع، لم يجد حتى الصور الأولى، فلا نهايات في المنفى حتى لو مات الإنسان فيه.

عاد عيسى إلى قريته، إلى مكانه، إلى أهله، وبعد شهرين مات.

صارت الهجرة كثيرة في سِماهوي، صار النفي كثيراً بلا أوقات، صار بلا أسماء.

لم يعد أحدٌ يُسمّي النخيل بأسماء المهاجرين.



رَجفةُ العَين

فاضَ البحرُ،

ولم يَرَ أهل سِماهوي مدّاً هادئاً جداً أكثر منه، تجاوزَ الشواطئ وأغرقَ البساتين المجاورة حتى ظنّ الناس أنّه لم يعد في البحار البعيدة ماء، وكان ينحسر بطيئاً جداً على غير طبيعة الجزر الذي عرفوه، اختلّ التوقيت الزمنيّ الطبيعي لحَرَكَتي المدّ والجزر فيه، اختفت الفواصل بينهما، ارتفع مستوى الماء، ما عاد الجَزر يكشف عن قاع حظور الصيد، وتكرر الفيضان حتى فاض الخوف بالناس، طَفت النباتات البحرية والحشائش في شكل دوائر وخيوط وأقمشة بالية حتى اخضرّ سطح البحر، وزادت فقاعات الهواء، وتجمعتْ كِسَر الفخار على رمال الشواطئ، ما عاد أحد يرى شيئاً من صخرة «قصّار»، وندرت الحاجة لوجود الباب العود؛ صار البحر في السواحل عميقا،

يسمح بمرور السفن فيه. قالت خزنة:

- لا أفهم ما يحدث! تهزّني رجفةٌ قوية كلّ يوم مرّات، فلا أقوى على الحركة!

لّمَحَتْ لها أم إبراهيم باسمةً بأنّها من علامات الوهن، فردّت:

- لا، أعرف رجفة الوهن جيداً، لكنّ هذه الرجفة تحدث عند قدميّ فقط، ولا تتجاوزهما، رجفة يهبطُ فيها قلبي أسفل ضلوعي، كمَنْ يغرق وهو نائم من دون ألّم. رجفة الوهن لا تُسقط غباراً من سقف المنزل!

طمأنتها أمُّ إبراهيم، لكنّ الرجفة صارت رجفات، تتحدثُ خزنة عنها صبح مساء.

وعند سلوم الشمس من اليوم السابع للرجفة الأولى غَشِي ضبابٌ كثيف القريةَ حتى حجبها عن كلّ شيء وتعذرت الرؤية إلّا في الأماكن المرتفعة وفي أعالي النخيل، صار الناس يتعرفون على بعضهم بعضاً بالصوت، شعروا بماء يلامس أقدامهم، وكان بعض منهم يمدّ يده، يلمسه، يتذوقه، ويصرخ: ماء بحر.. ماء بحر. انقشع بعض الضباب فرأى النّاس الماء كأنّه

لفرط بطئه في الحركة واقف، غطّى اليابسة وارتفع إلى جوزة القدم. عمّ الذهول الكبار وفلت أطفال من أيدي أمهاتهم يلعبون في الماء بلا خَوف، وكانت حبّات الماء التي تتطافر وتقفز من تحت أقدامهم الصغيرة لا يعود شيءٌ منه إلى الماء.

صرخت خزنة بكلّ ما لديها من قوة: اغمسوا الشُعلات في الزيت، اشعلوها، واربطوها في أعالي النخيل. حملتِ النساءُ صوتها إلى أحياء القرية كلّها: اغمسوا الشُعلات في الزيت، اشعلوها، واربطوها في أعالي النخيل، فهبّ الرجال وثلّة من النساء النحيلات الخفيفات يركبون النخيل مسرعين، متمكنين، ليس في ركوبهم اضطراب ولا خوف، يحملون في أيديهم شُعلات النار، قد علّقوها في الجذوع قبل رؤوس النخيل بقليل، كلّما عُلّقت شعلة انعكست لها وللنخلة صورة في الماء، ولكثرة الشُعلات التي عُلّقت تعب الرجال ولم تتعب النساء وصار الواحد منهم إذا همّ في النزول من النخلة يظنّ أنّه يصعد! لم يرَ أحدٌ القرية بهذا الحال: شهبٌ تصعد منها إلى السماء.

ارتفع الماء أكثر، ارتفعت صيحةٌ أخرى من خزنة للرجال خاصة: أدخولوا النساءَ والأطفال في الجرار! فحمل إبراهيم والرجال صوتها على أصواتهم الجهورية القويّة: أدخلوا النساء والأطفال في الجرار! وأحكموا غلقها.

لم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى سكتتْ أكثر الأصوات في القرية، ما عاد أحد يسمع صوت طفل أو امرأة إلاّ صوات خزنة تحثّ الرجال على ركوب النخيل.

فاضَ البحر بهدوء سيلان حبّات النّدى على أوراق أشجار الموز وغطَّى سِماهوي كلّها ولم يبقَ إلّا النخيل والشُعلات المعلّقة تقترب من صورتها في الماء قليلاً قليلا حتى تدخل الصورةُ في الصورة.

كان الماء يفتكُ بالذين نكّلوا بأهل سِماهوي واحداً واحداً، لكلّ واحد منهم صرخة أخيرة فيها فزع الغرق الحتمي، مرّت جثثهم طافيةً، سابحةً على ظهورها، مفتوحةَ العينين في فزعهما الأخير، تصطدم بجذوع النخيل فتتغيّر جهتها كلّ حين.

إبراهيم والرجال الذين لجؤوا إلى رؤوس النخيل

يَبستْ عيونهم وناموا قبل أن يصل إليهم الماء.

خزنة لم تدخل في الجرار الكبيرة كسائر النساء، ولم تأوِ إلى نخلة.

هطبتِ سِماهوي إلى قاع البحر...

كلّما غاصَ صيادو القُرى المجاورة قالوا:

نرى وجوهاً آدمية شفافةً تتماهى، تتهادى مع الماء، مرتاحةً، تتلاشى قبل نيّة لمسها، يدخلُ الوجهُ في الوجه، يصبحان وجهاً جديداً نعرفه من زمان ويعرفنا. وجوهٌ تضيء لنا ما أظلم من قاع البحر، مَنْ رآها لا ينقطعُ نَفَسُه ولو بقيَ اليوم كلّه تحت الماء.

ويقول بحار:

كلّما غصتُ رأيتُ ما يُشبه قريتنا، رأيتُ بيوتاً، تصعدُ منها فقاعات هواء كأنّها اللؤلؤ، وأنّها لا تتوقّف...

ويقول بحار:

لم أرَ حضوراً كثيفاً لقناديل البحر في مكان آخر، قناديل شفّافة مضيئة في أطرافها، تصعد إلى سطح البحر في ميلان وهدوء.

ويقول أهل القرية:

إنّها ستصعد في يومٍ ما، تحملُها وجوهُ أهلها، ولا
شيءَ فيها ينتظرُ شيئاً.



*** صدر له:**

- **مريم، سيرة الخضاب والنسوة اللاتي ضاعت أسماؤهن/** سيرة، مسعى للنشر والتوزيع، البحرين، الطبعة الأولى 2013 والثانية 2015.

- **نسيج العمامة/** سيرة السيد محمد صالح السيد عدنان الموسوي. (إصدار محدود، لدى المؤلف فقط) البحرين 2014.

- **لولوة، سيرة الحلو والمرّ/** سيرة، المؤسسة العربية للطباعة والتوزيع، البحرين 2010.

- **إذاعة البحرين، سيرة الكلام/** سيرة وتاريخ، وزارة الإعلام، البحرين، 2008.

- **حوّام/** رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008.

- **فرقة البحرين للموسيقى، نوتات التأسيس/** سيرة وصور، وزارة الإعلام. البحرين 2007.

- **إذاعة البحرين، صورة الكلام/** وزارة الإعلام 2006.

- **قندة/** رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006.

- **ضريح الماء/** مجموعة قصصية، مشروع النشر المشترك بوزارة الاعلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.

*** مشروع «ذاكرة البحرين البصرية» الصادر عن «بيت البحرين للتصوير» للمصور القدير عبدالله محمد الخان:**

- **تمر البحر، من سيرة القرية في البحرين/** بحث وإعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2015.

- **عبدالله الخان، معجم العين/** سيرة المصور عبدالله محمد الخان. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2013.

- **دفتر اللؤلؤ/** بحث وإعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2012.

- **ديموقراطية 73، الشعب في التجربة/** بحث وإعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان للمجلسين التأسيسي وبرلمان 73. بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2010.

- **المحرق.. وردة البحر/** إعداد حسين المحروس، صور الفنان عبدالله الخان لمدينة المحرق بين العام 1945 والعام 2007، بيت البحرين للتصوير، البحرين، 2007.



رواية



19.6.2016

ISBN: 978-99958-70-29-4



info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com
P.O.Box 65317 Manama,
Kingdom of Bahrain

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution